أمجد الصبان

لصوص النوم

قصص

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لصوصُ النَّـوْم

*

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لصوصُ النَّـوْم

قصـص

أمجد الصبَّان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى

كريمة الصبَّان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في مرحلتي الثانوية، أُصبتُ بانزلاقٍ غضروفيّ في عمودي الفقري. قالت لي الطبيبة إنّ السبب هو المقاعد التي أجلس عليها؛ لذلك لا أهبط على الجالسين فوق المقاعد، أو السائرين بهمة، أحيانًا أهبط على السائرين الناظرين إلى أعلى بوَلَهٍ شديد، لكن إذا رغبت فيّ؛ ستجدني ولا تراني ستراني فقط على هذه الورقة لمرة واحدة- على الأسِرّة الضيقة، قد أكون تحت المرتبة، أو بين ألواحها الخشبية، أو خلف ظهرها المعدني. الأسِرّة تتناسب تمامًا معي، ومع رِجلي المعطوبة، رِجلي التي أشعر نحوها بعاطفةٍ أبويّة.. رِجلي اليُمنى.. وهي تُحرّكُ دفّة جسدي إلى الأمام، وخلفها اليُسرى تبدو كالمغلوبة على السير السريع.

أفكر في كتابة قصة.. عني.. عن قصةٍ غير مكتوبة ترغبُ في كتابة قصةٍ عن رِجلها اليُسرى المُقيَّدة بسرير في غرفة معتمة، وتُدرك أنّها تشبه مضرب البيسبول، ليس عن طريق الوقوف عاريةً أمام المرآة؛ بل حين أرى للمرة الأولى، النصف السفلي للفتاة التي ظللتُ لسنةٍ كاملةً أُحبُّ نصفها العلويّ. أوقف التفكير في القصة، أحبُّ أنْ أتقافز لا أن أكون خاضِعًا للتقييم.

وددتُ اللّعِب، لكن لم يكن هناك السرير الطائر، أو المائي، أو قطارٌ عرباته من الأسِرّة الفارهة، تجوّلتُ قليلاً، حتى أصبحتُ أجلس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وسط بيت المرايا، لوهلة توقّعتُ أنّ كلّ الأفكار التي تخزّنتْ فيّ، ستنعكس أمامي على المرايا، سأراها لأول مرة، وسأستمتع باكتمالها، لكن ما انعكس، كانتا عيناي الخضراوان الحزينتان. رأيتُ شفتاي تتحرّك أمامي، وتُخبرني بأنّ الحزن الذي في عينَيّ، يرجعُ إلى أنهما لا يستطيعان أن يقرآ جملتي الأخيرة أبدًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفيل وليس الكانجرو يا وُودي

حلمٌ ثانٍ:

أثناء سيري في الممر الطويل الضيق، خرج أمامي من الحائط رجلان قويان. خِفتُ، فأوشكتُ على الركض إلى الخلف، أمسكاني من كتفيَّ بقوة. اشتدَّ خوفي؛ فتبوَّلت في سروالي. عدَّلا اتجاهي ودفعاني للسير إلى الأمام. من بعيدٍ لاحَ لي وُودي آلن يجلس على مقعدٍ روماني، يضع رِجلاً على أخرى. عندما اقتربنا منه، أنزل وُودي رجله، ومال بجسده إلى الأمام، وأمرني أن أُبدِّل الفيل في قصتي بالكانجرو؛ فالكانجرو ليس مشهورًا كالفيل، كما أنَّه كائنٌ لطيف، حنونٌ جدًّا.. يقفز ولا يسير، يعيش في قارة واحدة، والأضواء ليست مُسلَّطةً عليه بالقدر الكافي.

تفحصتُ وجهه لأتأكَّد من أنَّ الندبة ما زالت به. لاحظ؛ فأدار وجهه إلى الخلف، وأشار بيده إلى الرجلين أن يضرباني.. ضُربت في بطني، ثم في قصبة رجلي. سقطتُ على الأرض، وجُررتُ إلى خارج الممر.

*

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رأيتُ فيلم وُودي آلن الجديد. كان يحكي -كما توقّعت- قصتي التي رويتها له على المقهى، حكاها تمامًا. مشاهد حب طاحنة، تتخللها لقطات أرشيفية لحياة الفيلة.. لقطة للفيل مع القطيع.. الفيل يشرب.. الفيل يضاجع.. الفيل وسط السائحين.. لكن الشيء الوحيد المختلف كان النهاية؛ فقد بدّلها حتى لا يكشف نفسه، ابن الحرامي.

كنتُ مضطربًا من الفقْد، والحلم زاد من اضطرابي. وكمثل المضطربين، سِرتُ في أرض الله حتى اهتديتُ إلى مقهى لأستريح. كان في شكله الأربعيني يجلس في مدخل المقهى، مُنكبًّا على طاولة عليها أوراق وأقلام. في طرفها زجاجة كوكاكولا. كان يرتدي نظارته، قميصه اللبني، وبنطاله البيج. تردَّدتُ كثيرًا، لكنّي في النهاية جلستُ. تمتمتُ؛ فالتفتَ لي. أشار بيده أن أتكلم. حكيت له عن علاقتي برانيا التي نشأت على الإنترنت، ولم تتجاوزها. لم يدُر بيننا أيُّ كلام، فقط تُصبِّح عليَّ بقبلة على شكل "Emoji"؛ فأُصبِّح عليها. تُمسِّي؛ فأُمسِّي. فجأة اختفتْ. في رسائلٍ خاصة، أرسلت لها رسائل بها ورود.. قلوب.. وجهٌ يضحك.. بكيتُ من شِدَّة الفقْد.. ولكنّي لم أرسل لها وجهًا يبكي.

بالأمس حلمتُ بها. حلمتُ بأنّي أجلس على كنبة بيتي الحمراء، وكنتُ أشاهد التلفاز. رأيتُ مسابقة: من يجيب على الأسئلة المُتعلّقة بعالم الفيلة سيفوز بفيل هدية. ظهر الفيل الصغير مرتديًا قميصًا أبيض، بنطلونًا أسود كالخُدَّام. وقفتُ أنتظر الفيل في المطار. هبطتْ الطائرة، أُنزلتْ السلالم. ركض الفيل نحوي بشغف طفولي. انحنيتُ قليلاً، فَتحتُ ذراعي. ضممته بقوة. رأيتُ امرأة خمسينية تشبه رانيا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تمامًا- تنزل من سلم الطائرة. لعبت مع الفيل قليلاً حتى تجاوزتنا. أمسكت الفيل من زلومته ومشينا خلفها. من بعيد سمعت طرف الكلام، وهي تقول: "إنهما هو ورانيا قد تركا بعضهما". قلبي انخلع. ضغطت على زلومة الفيل بقوة؛ فنزل منها ماء. تابعت المرأة حتى نهاية الممر المُفضي إلى سينما صيفية. تركت زلومة الفيل، وجلستُ بجانب المرأة في الصف الأمامي. التفتُ إليها، فالتفتت لي، في لحظتها تحوّلت المرأة الخمسينية إلى رانيا.

قلتُ:

"هتسيبني أنا؟"

"مش عارفة.. بفكر أسيبكم أنتم الاتنين".

سمعتُ صوت الفيل يئنُّ؛ فالتفتُ، كان الفيل محشورًا تحت كرسي. ذهبتُ إليه. تقرفصتُ على الأرض. فجأة، هبطت الأرض بنا إلى بركة؛ فغرقنا. انتهيتُ من رواية الحلم، وطلبتُ منه تفسيرًا. أراح ظهره على ظهر الكرسي، وقال:

"الفيل حيوان ثديي نباتي ذو حجم ضخم، ويُعتبر من أضخم حيوانات الغابة، فهو ذو رأس كبير، وذيل قصير، وله نابان من العاج، ويعيش غالبًا في آسيا، وفي غابات أفريقيا.

الفيل من الكائنات الطيبة التي ننخدع في مظهرها، فنراها طيبة مسالمة، وهي بنت قحبة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفيل يرغبُ في السيطرة على عالمه؛ لذلك يرغب في قتل الأسد، والسيطرة على الغابة.

الفيل.. والفيل.. والفيل.. والفيل.."

بكيتُ، واهتز جسدي بشدة. سألني عنها، فقلتُ:
"شبه ديان كيتون".
فقال بعصبية وسرعة شديدة:

"صاحبتك ما تقدرش تعيش من غير فكرة العاشق والحبيب، وتعشق المضاجعة الثلاثية، واحتمال كبير أنام معاها أنا كمان".

اتَّقد جسدي، وزفرتُ نارًا حقيقية. أمسكتُ زجاجة الكوكاكولا، وخبطتها في الحائط فانكسرت. ظهرت ملامح الفزع التقليدية على وجهه. أمسكته من ياقة قميصه، وضربته بطرف الزجاجة في خده. امتدت ندبة من أسفل عينه حتى منتصف الخد. استندتُ على ركبتيَّ ألتقط أنفاسي. رميتُ قطعة الزجاج على الطاولة، ومشيت. ظللتُ أتابع القنوات العالمية المهتمة بفن السينما حتى أراه، والندبة تزين وجهه. لكنِّي لم أجده. لاحقًا علمتُ من تلك القنوات أنَّه سيذهب بفيلمه الجديد إلى مهرجان كان ليفتتحه.

أدخلتُ ترددات قناة "كان تي في". رأيته، كان يقف وسط نجوم الفيلم ليلتقطوا الصور، كان يرتدي نظارة كبيرة تغطي منتصف الندبة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تحدث المذيع على ما أعتقد عن الندبة. الكاميرا، تقترب ببطء شديد من وجهه حتى تستقر على نصفه المندوب. فأدار وجهه وأظهر خده الآخر.

*

حلم أول:

جاءني وُودي في حلم قصير يطلب منّي تغيير النهاية، بدلاً من اقتراب الكاميرا على نصفه المندوب، أن أنتظر حتى ينتهي من التقاط الصور، فيلتفت؛ ليسير على "الريد كاربت"، فتقترب الكاميرا من يده اليمنى التي تحمل قطعة الزجاج التي نُدب بها، ثم يحدث إظلام تدريجي، وتظهر كلمة النهاية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كنتُ، سأكون في فرح

١

قبل موتي، أريد أن أكون شاويشًا للمسرح، ألبس قميصًا حريريًا مطرزًا، وبنطالاً كبنطال الصيَّادين، أتحرك على المسرح مُرقصًا عنقي، يديَّ، رجليَّ؛ لذا سأقف أمام المرآة المبقعة بمعجون الحلاقة الناشف، لأطمئنَّ أن شعري الأصهب يميل على جنب، وأنَّ عيناي الزرقاوين ما زالتا مثيرتين. سأسير مسافةً شبه طويلة من بيتي حتى أرض المبارزات. أمشي ببطء مباعدًا بين رجليَّ لأُنجي بنطالي من الوسخ، أُقدِّم أوراقي، وأمسك ميكروفونًا صغيرًا. مع سماعي لصافرة الحَكَم، سأقذف الميكروفون في مُبارزي السمين، فيموت. سأُدبدب على الأرض فرحًا، سيضع الحَكَم ذراعيه الرفيعتين على كتفيَّ، ويخبرني بأنَّ قذف الميكروفون ليس من شروط المبارزة، سيعطيني ميكروفونًا كبيرًا، ويُعلِمني بأنَّ عالم التشويش لا يسمح بوجود مشوشًا سمينًا.

٢

في أول أفراحي، سأذهب مبكرًا، وأجلس بعيدًا على يمين المِنَصَّة، أتابع عملية تكوين المسرح، ورصَّ الكراسي الحمراء بشكل عرضي، سأشعر بيدين توُضعان على كتفي، سأرفع رأسي لأعلى،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فأرى أطراف تاجين ذهبيين متحركين إلى الأمام. يوضع كرسيان صغيران أمامي، يجلس عليهما، مُغنٍّ يضع تاجًا ذهبيًا على رأسه، يلبس قميصًا أبيضَ، ويُشمِّره حتى الكوع، وبنطالاً أبيضَ واسعًا، وراقصةً تضع تاجًا ذهبيًا أكبر قليلاً، وتلبس بدلة رقص بيضاء، ملتصقة على جسدها، فتبرز تفاصيله الأشد خصوصية؛ كفرجها مثلاً. سأشد بنطالي، وأجلس على حافة الكرسي، فيحكيا لي الحكاية بصوتٍ هامس، ويختفيا، ثم أغيب عن الوعي.

٣

للترقية، سأُدعى إلى مبارزة ثانية، ستكون معه بقميصه الفضي اللامع، كان الوحيد المسموح له بفتح قميصه حتى منتصف صدره، لكن كنَّا نعلم جيدًا أنَّه قميص ملعون. إذا استبدله، بُهتت ليلته، وقُذف بالكراسي. صَعَدْتُ على المسرح.. اقتربتُ منه.. كان جلده مكشكشًا كالملابس الخارجة من الغسالة للتوِّ، سلَّمتُ عليه بانحناءةٍ خفيفة، عدتُ إلى منتصف المسرح، سمعتُ صافرة الحكم؛ فقلتُ مسرعًا:

"أنا الفرح.. أنا الفرح.. أنا الفرح.."

فانخطف لونه، ثم ردَّ عليَّ بسرعة؛ فبُهِتُّ. جلستُ على الكرسي، أنثرُ عَرقي بطرف إصبعي. هُزِمتُ لكنِّي مُنِحتُ الترقية، نظرًا لسرعتي في الأداء، وحملي لبذرة شاويش موهوب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٤

سأعرف منها: أنّ رشا منفصلة عن زوجها.. وأنّ ندى اسمها الحقيقي "امتثال".. وأنّ مرمر ترغب أكثر في النساء.. سعد يحب رشا.. رشا تحب رامي.. رامي يحب مرمر.. ومرمر تتمنى رشا وندى في وقت واحد. أحمد لا يثبتُ في مكان، ينتقل من محافظة إلى أخرى.. رؤوف يتمنى الغناء مع عدوية.. سامح يصوِّر حاليًا ڤيديو كليب.. نانا مصاريف أقساطها تتجاوز دخلها.. وائل لم يحافظ على النعمة التي أعطاها له الله، وتركها تذبل.

هي مرحلة أساسيَّة في حياة أي شاويش مبتدئ.. ضاجعتُها برفق احترامًا لسنها، ثم ستحكي لي عن أمنياتها بشغف، سأضمها إلى صدري، وأربت على كتفيها، وأتمتم متمنيًا لها تحقيق ما ترغب.

٥

سأحكي لها أنّي أكره المستشفيات، رأيتُ بها أبي مُسَجًّى، يلفظ أنفاسه الأخيرة.

في حلم يقظة، تحوَّلت البذرة إلى بطيخة، شققتُها.. التهمتها مستمتعًا، كنتُ أجلس على عتبة بيتنا، حتى أراها، في نزولها الصباحي أو عودها المسائي، كنتُ أرى منها جانبها الأيمن الخَجِل، بالحظ رُتِّب ميعادٌ.. كانت رقيقة.. تحدثنا عن الخلود.. التمني.. القلق.. بعد ثلاث ساعات بنصف ساعة، نسيتها، حاولت تذكر تفاصيلها، ففشلتُ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقفتُ في غرفتي الخالية، ضممتُ يداي إلى صدري، وصرختُ بقوة حتى ارتجَّ قفصي الصدري. سقطتُ على الأرض مغمًى عليَّ، أفقت على وجودي بين أربعة جدران شديدة العفن، في مستشفى صغير، محاط بسيارات متكدسة في شارع ضيق.

٦

حلمي الذي سيظل أبديًا، أن أصبح تاجرًا للمخدرات. أتخيلني ماسكًا الحقيبة في يدي، أقطع بها مسافة "مائة كيلومترٍ" في دهاليز ضيقة، أسمع وقع أقدام من بعيد، فألتصق بالحائط حتى يمر الطيف، أُكمِلُ السير، ورعدة البرودة تُنشيني.

في المرحلة الإعداديَّة، أحببتُ فتاة. كنَّا نستند على سورٍ يُطِلُّ على النِّيل، كنتُ أسرَحُ عندما لا أجد كلامًا، فكانت تضع يدها على كتفي وتسألني عن حالي، فألتفتُ إليها، وأقول بضيقٍ شديد:

"صفقة المخدرات في البحر، ومش لاقي حد يشتريها."

كانت تضحك بشكل هيستيري، ثم تطلب منِّي ألَّا أقلق، فهي على استعداد لشرائها.

كنتُ سأكون في فرح، فأُحيِّي تاجر مخدرات باهتمام مبالغ فيه، فيُصبِّح عليَّ بقطعة حشيش أتمزَّج بها.. ثم أحاول التقرب منه؛ فأنجح.. أصبح في يوم من الأيام ذراعه الأيمن.. أقتله لأكون "أنا المخدرات".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكنَّ حلمي مُحيَ.

في بداية مرحلتي الثانوية، رافقتُ ابن تاجر مخدرات لمدة أربع أيام بالتمام، كنتُ آكلاً، شاربًا، شبه نائم معه. كنّا نبقى في غرفته، أسمع صوت الجرس يُدوّي في البيت، تفتح أخته/ أمه الشبّاك لتجيب، أرمي أذناي خارجًا، وأركّز في أسماء الأدوية الأفرنجيّة. بعد قليل، أسمع صوت "السَّبَت"، وهو يرتطم على الأرض بقوة. وفي يوم ما، كنتُ أنتظره أمام تقاطع بيته؛ فظهرت أُمُّه، كانت تلم الزبالة من على الأرض، بعد قليل جاء رجل، ووضع لفافة كبيرة بجانب حائط، ومضى، جاءت، أخذت اللفافة، وضعتها في بئرها، ومضت إلى البيت الذي يَبعد أمتارًا قليلة.

٧

قبل موتي، أريد أن أكون غجريًا. أطلق شعر رأسي.. لحيتي.. أنظر نظرة زائغة.. أجرُّ عربتي الخشبيَّة.. وألف بها المدن، و..

٨

سأكون نائمًا على الكنبة.. ضامًّا ركبتيَّ إلى صدري.. وأُشخِّر بصوت عالٍ من شدة التعب.. سيقف أمامي المغني والراقصة ذوي التيجان الذهبية.. ستقترب منّي الراقصة، وتنحني قليلاً.. تُمرِّرُ يدها على جسدي؛ فألتفت إليهما مستيقظًا.. ترجع الراقصة إلى الخلف،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتبتسم للمغني.. بصوت هامس يدعوني المغني إلى مبارزة ثالثة.. سألوّح بيدي رافضًا.. ثم أتقلّب مُعطيًا إيّاهما ظهري.. ينظر المغني إلى الراقصة؛ فترفع الراقصة كفّيها إلى أعلى، تَزُمُّ شفتيها، ينادي عليَّ المغني؛ فلا أجيب.. يهزُّني بخفة.. ثم يجذبني من كتفي تجاهه.. فأفرغ دمًا.. تصرخ الراقصة.. تضع كفّيها على وجهها.. يخلع المغني ملابسه.. يمسح الدم من على فمي.. يمسكني من رجلاي.. يُشير إلى الراقصة أن تمسكني من يداي.. يحملاني ويختفيان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يوم دخلت في حدوة حصان

لماذا يقطع أستاذ أبو النصر، تلك المسافة من نقطته المرتكزة في أقصى المخزن، مرورًا بكتل الكاوتش التالف التي تصيبه بالوهن؟! الشاحنة التي تتجه نحوه بسرعة.. سماعه من بعيد لسباب الحاج أحمد إلى جميع الصنايعية.. خروج الشيخ متولي من المرحاض وابتسامته اللزجة، وهو يقول له: "ما تيجي تصلي العصر".. أربعة مقاعد بلاستيكية منخفضة الطول.. الالتصاق بالحائط أثناء مروره من أمام سيارات مديري الشركة، كي يصل إلى مبنانا الإداري، ومن ثَمَّ يتبوَّل في مرحاضنا؟

*

عندما استيقظ أبو النصر، مُتأخِّرًا كعادته بسبع دقائق، قرَّر أن يُبدِّل ميعاد عالمه الثاني حفاظًا على أكل عيشه. كان كلَّما أغمض عينيه من الثامنة صباحًا حتى الرابعة عصرًا، يصبح رئيسًا لطاقم نظافة أحد المراكب الغارقة. ذلك ما كان يحتاجه بعد تدنِّيه تدريجيًّا في المستوى الوظيفي، فبعد أن كان محاسبًا واعدًا أصبح أمين مخزن بائس. كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطاقم مكونًا من: الرئيس ذي القدرات الحسية العالية، وحاملي المقشات، وماسكي الصناديق، وحارس يحمل رمحًا إغريقيًا حتى ينقذهم إذا باغتتهم سمكة قرش، كان شرطًا عليهم أن يرتدوا حفاضات تحت سراويلهم حتى لا تتسخ حين يلمحون بريق ذهب.. يد قرصان.. هيكلة لامرأة عارية. الأمر اقتصر بينهم على العمل فقط، لا سلامات، لا تبادل للسجائر، لا حكي عن طرق الاستمناء الحديثة. فقط حين اختفى الحارس فجأة، تودد إليهم كي يحل أحمد ابن أم أحمد -أو "أحمد مَطْيَز"- محل الحارس. وحكى لبقية الطاقم -ليرقق قلوبهم عليه- بأنّ أحمد ذو مؤخرة كبيرة تشبه مؤخرة سيارة "زستاڤا" مستعملة. كان الناس دائمًا ما يتندَّرون عليها، ويسألونه باستمرارٍ وبإلحاح شديدين إذا كانت مؤخرته ملجأ لليتامى، أم مخبأ للهاربين؟

بعد خروجه من المرحاض، اتَّجه إلى الصالون، رفع سماعة الهاتف، طلب مَطْيَز، ثم أمره بأن يحرر له إجازة عارضة؛ لأنّه سيتغيب عن العمل لظروف خاصة. بعدما تلقّى مَطْيَز الأمر، وضع هاتفه المحمول في جيبه الخلفي. وبعد دقيقة، كان يقف أمامي، يطلب مني بلهجة ممتلئة بالعشم أن أحرِّر الإجازة. أشرت إلى الباب وقلت له بغضب مُخفَّف: "عليك أن تظلّ قابعًا في المخازن بجانب الكاوتش التالف ونميم الفئران". كنتُ من القلائل الذين لا يهتمون بمؤخرته، وكنتُ أعوض ذلك بصب غضبي عليه لأتفه الأسباب.

سحبت درج مكتبي وأخرجت ورقة الإجازة المُحرَّرة سلفًا، ومعها إذن بالخروج لي لمدة ساعتين، درت حول المكتب الخشبي، وسرت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مسافة بسيطة، حتى أصبحت أمام مكتب المدير العام. طرقت طرقتين، ثم دفعت الباب، كان المدير يشاهد إحدى مباريات المصارعة النسائية، وضعت الورقتين أمامه، بدا عليه التساؤل؛ إلّا أنني نظرت إلى السقف مُبديًا عدم اكتراثي، وقّع على الورقتين، سحبتهما من أمامه بخفّة، وسرت إلى خارج الشركة، في انتظار أي وسيلة مواصلات.

كنتُ كلّما أغمضتُ عيني من الثامنة صباحًا حتى الثانية عشر ليلاً، أرى وأسمع ما يدور في خَلَد أبي النصر، أو ما يتفوّه به. لا أرى بيته.. من يحادثهم.. مخازنه.. كوب الشاي الذي يشربه.. ولا الشوارع التي يسير بها، ولا أسمع الردود على كلامه، أيضًا لم أكن أرى أبا النصر بكامل هيئته؛ بل أرى قفاه فقط، كان عريضًا مغطى بطبقة دائمة من الوسخ، وفي زاوية قفاه عضة عميقة. في الحقيقة لم أكن مُهتمًا بأبي النصر، ونادرًا ما كنتُ أغمض عيني، ثم تنامت داخلي رغبة في أن أرى زوجته، تلك التي تستلذ في النكاح حتى العض الشديد.

في مرة غاب أبو النصر لمدة يومين فذهبت لزيارته، مُستغلاً كوني مازلتُ طازجًا في العمل، يهتم بزملائه إذا غابوا. طرقت باب بيته، انتظرت حتى جُذِب الباب ببطء إلى الخلف دون أن أرى من جذبه، كان أول ما وقعت عليه عيني: صورةً مُعلّقة على الحائط المقابل للباب، وفي الصورة كان أبو النصر في شيبته يجلس على الأرض ساندًا ظهره على الحائط، فاتحًا رجليه ليظهر ما بينهما نائمًا ومستكينًا. دخلت إلى البيت مذهولاً، كانت الصالة خاوية، وصوتٌ ما ينبع من حجرة بعيدة. كان مُعلّقًا على جميع الجدران صور لأبي النصر بنفس الوضعية منذ الصغر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حتى الآن، وصلت إلى مكان الصوت، وعند دخولي إلى الحجرة، طرقعتْ زغرودة.

كانت الحجرة مكتظة بالنساء وكنتُ الذكر الوحيد. كنَّ متراصّات على شكل حدوة حصان. دُفع بي داخل الحدوة، علت الزغاريد وصَاحَبَها صوت طبول، وقالت إحدى النسوة: "الليلة عيد". بطبعي أميل إلى الفرح واستجداء الاحتفال؛ فعندما سمعتُ كلمة "عيد" نسيت المهمة الرئيسية التي أتيت من أجلها، وهي أن أرى زوجة أبو النصر، وانهمكت تمامًا في التصفيق والتمايُل مع صوت الغناء الشعبي. اندمجت حتى التثمت الحدوة حولي، وأصبحت الدائرة أكثر ضيقًا، جذبتني إحدى السيدات من قدمي، وتكالبن عليَّ في ثوانٍ. فتحن بنطالي. وبموسٍ صغير جرحن قضيبي. ثم حملنني وقذفنني خارج البيت، والزغاريد كانت تنطلق بقوة من خلفي.

يبدو أنَّ تلك الواقعة أصبحت سرًّا ضمنيًّا بيني وبين أبي النصر.

وأنا أسند رأسي على زجاج الميكروباص، كنتُ على يقين بوقوع مصيبة لي. أبو النصر لا يأتي من تعقبه خير أبدًا، في المرة الأولى قشطوا لي قضيبي. لكن كيف لا أكون معه في هزيمته التامة تلك؟!

نزلتُ أمام المستشفى العام. وفي قسم المخ والأعصاب تواريت في طرقة مظلمة، ثم أغمضت عيني. لم أكن أعرف في أي غرفة يجلس أبو النصر، لكنّي كنتُ أسمع ما يقوله للطبيب. كان يحكي أنه إذا رآه المدير نائمًا مرة أخرى سيُرفد. وما زاد من خطورة الأمر، تلك النظرة الحادة

CamScanner

القوية التي تتشكل في عين أبي النصر طول فترة انتقاله من عالمه الثاني إلى عالمه الأول، عندما رآها المدير اعتبرها تبجُحًا وقلة أدب، ومقاومة مُضافة إلى فعل النوم. يصمت أبو النصر قليلاً، ويضيف أنّ من أمنياته القليلة أن يرى تلك النظرة؛ لأنها بالطبع ليست كأيّ تبريقة، ثم قال بشيء من الأسى: "للأسف لم يعُد هناك فرصة".

طبعًا لم أعرف ما كان رد الطبيب، فتحتُ عيني بعد ما سمعت تحيات الوداع، رأيته يخرج من باب في المنتصف، لم يرني، وسرت بخطوات راسخة إلى باب الخروج، انتظرتُ حتى تأكدت من أنه انصرف تمامًا. وعند خروجي من باب المستشفى، اصطدم بي موتوسيكل.

بالرغم من يقيني التام بوقوع المصيبة، لكنّي لم أتوقع أن يثبتوا لي مسامير في جسدي، وأن أظل حبيسًا في السرير لمدة ستة أشهر، خلال تلك الفترة لم أغمض عيني ولو لمرة واحدة، لم أهتم بما حدث له في حياته: أتخلصَ من عالمه الثاني فعلاً أم لا؟ فكانت كراهيتي له جامحة.

الغريب أنّ تلك الكراهية كانت مرتبطة برقدتي فقط، أمّا بعدما تعافيت وقمت بالسلامة، وأصبحت قادرًا على السير بعكاز. ذهبتُ إلى الشركة لأعرف إذا ما زلت على قوة العمل أم لا؟ جاء كل العاملين لتحيتي إلّا أبا النصر. وبقليل من الفضول عرفت أنّه قد رُفد، ليس بسبب النوم، وإنّما بسبب عدم قدومه إلى الشركة منذ ستة شهور. بعد عودتي إلى البيت، قمت بفعل الإغماض، واكتشفت حينها أنّي فقدت القدرة على رؤية أبي النصر. لم أحزن؛ لكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفضول أكلني. ذهبتُ إلى بيته، وعرفت أنه رحل من الحي كلّه. ولا أحد يعرف عنوانه الجديد، وأنّ النسوة في الحي حزانى؛ لأنّ عبد طهوره السنوي على المشارف.

لم يتقبل عقلي فكرة عدم وجود أبي النصر، فالعشرة لا تهون عليّ. على الرغم من لُزُوجَتها.. ومما أنّ العلاقة كانت ذهنية في الأساس؛ اهتديت إلى أن أتخيَّل لقاء يحدث بيني وبينه. كانت اللقاءات المتخيلة في بدايتها رومانسية.. أحضان.. حكي حميمي.. سخرية من الآخرين.. وهذا ما كان يرفضه ذهني فورًا، حتى توصَّلت إلى ما هو آتٍ.

سأكون ذاهبًا إلى أحد الفنادق لأشرب قهوة المساء، سأراه هناك مرتديًا زي العاملين في الفندق، سأنادي عليه؛ فلا يجيب. سأذهب إلى موظف الاستقبال لأسأله عن مواعيد عمل أبي النصر، سيقول لي برخامة: "ثمانٍ وأربعون ساعة"، أتحرك من أمامه، وأذهب باحثًا عنه، سأجده في أحد الغرف، يدفس رأسه تحت المخدة حتى لا أراه.

أنادي عليه بصوت عالٍ، لا يُجيب. سيسحبني موظف الاستقبال، إلى خارج الفندق، نسير معًا، نصل إلى سيارة، يفتح لي الباب الأمامي، أركب، يلف من أمام السيارة ويركب بجانبي على مقعد القيادة. يضغط على زر تشغيل التسجيل، فتنساب قراءة للقرآن، بعد مرور نصف ساعة مستمعين إلى صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، يخبرني بصوت رقيق لم أسمعه من قبل أن أبو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النصر أصبح مينًا الآن. وجثته كانت ستوضع في حقيبة السيارة؛ إلا أن الشكمان ابتلعها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يوميات حروب الفئران

اليوم الثالث والأربعون

لا أميل عاطفيًا إلى الفئران التي تقع في مصائدي. بالأمس بعدما أمسكت بواحدٍ، قررت عدم إعطائنا فرصة لنتعارف، أمسكته من ذيله وألقيته بعيدًا، وقبل أن يسقط على الأرض، كنتُ أفكر في كيفية نزع تلك المصائد المهولة التي لم أعد أثق في اختياراتها.

اليوم الواحد والخمسون

كنا في الشتاء، وكنتُ مُرهقًا تمامًا، أحتاج إلى مكان ومشروب دافئ، فدخلتُ إلى مقهى، وجلستُ في ركن، بعيدًا عن الضوضاء. كنتُ ألعب بقدمي في نِشارة الخشب المفروشة على الأرض، حتى جاء الشاي ووُضِعَ على الطاولة النحاسية، وجاء هو معها، استأذن قبل الجلوس فأومأت موافقًا، قال وهو يفرك يديه أنّه كان يتوقّع أن يكون المكان أكثرَ دفئًا وأقلَّ صخبًا. كان أكبر مني بخمسين يوم أو أكثر، طلب كاكاو، ثم أضاف أنّ الشعور بالبرد يكون مضاعفًا خصوصًا مع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أجسادنا تلك. الثديين الثقيلين.. القضيب المنتصب دائمًا.. الفرج الملتعم بالمؤخرة.. "مساكين صح؟!" هززتُ رأسي تماشيًا معه، نظرتُ إلى الأرض فوجدتُ تلاً صغيرًا من نِشارة الخشب تكوَّن تحت قدمي. أخاف من الأشخاص الذين يُعبِّرون عن أنفسهم بسلاسةٍ لأشخاص لا يعرفونهم، حتى لو كان الأمر بسيطًا، كالشعور بالبرد. وأشعر بأنْ عبئًا كبيرًا وُضع على كتفي، وأنا مطالب أيضًا -حتى لا أحرجه- بأن أعبّر عن نفسي. قديمًا، كان من السهل عليَّ فعل ذلك. لكن الآن، وبعدما أصبح لديَّ شيء خاص أبحث عنه، أصبحتُ أخاف وبشدة؛ لذلك دُستُ على التل الصغير وانصرفت تاركًا إيَّاه ممسكًا بالكوب في يده ويهتز من البرد.

اليوم الثاني والخمسون

لماذا لا تحملنا الأرض فورًا إلى الأشياء التي نريد الوصول إليها؟ كان هذا السؤال يشغل عقلي وأنا أسير بلا هوادة، أنظر إلى الجحور، وأبحث في المخازن وصناديق القمامة. وتأكَّد التساؤل أيضًا، عندما وجدتُ في نهاية الليل، الفأر الذي انخلع له قلبي، معروضًا في قفص داخل الڤاترينة الأمامية لأحد المحلات. كان المحل مغلقًا؛ لذلك كان عليَّ أن أسير مسافة عشرة أميال، كي أعود إلى الرَحم الذي أنام فيه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اليوم التاسع والخمسون

طيلة الأسبوع الفائت، كنتُ أقضي اليوم كله أمام المحل الذي ما زال مغلقًا، أتابع حركة الفأر، وأشعر يومًا بعد يوم، أنني أنتمي إليه بشكل كبير، كل يوم حين أضطر إلى المرواح، كنتُ أشعر بفقد، كنتُ أريده أن يربت على شَعري، يأخذني في حضنه، أنام على فخذيه ويحكي لي قصصًا. عليَّ أن أجد حلاً، إمَّا أن أنقل إقامة الرحم إلى أمام المحل، وهذا صعبٌ لتعذُّر التواصل مع القائم عليه، أو أن أكسر الڤاترينة وأنتزعه منها، لكن لا أعرف إذا كانت قدراتي ستمكنني من ذلك، أم لا!

اليوم الثامن والستون

قابلته وأنا في طريقي إلى المحل، سار بجانبي وأخبرني أنه ما زال يشعر بالبرد، قال لي إنَّ حبيبته ـموقن أنَّها أنثى، كما أننا موقنون أننا ذكورـ أخذت منه حقيبة ملابسه عقابًا له على تعامله السيئ معها. هو يرى أنَّها أذته مرتين، مرة حين أخذت حقيبة ملابسه، ومرة أخرى حين تركته بدون إبداء أسباب واضحة، هي تتحجَّج بأنَّها تشعر بأنَّها لا تُشكِّل له أي أهمية في حياته، كيف وهو قال لها "أحبك"! يعتقد أنَّ هناك أسبابًا أخرى، لكن لا يستطيع تخيُّلها، يُعلن ـوهو يبكيـ أنَّه فشل في الحفاظ عليها، وأنَّ ما يضاعف شعوره بالبرد عدمُ وجودها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بجانبه، أخذتُه في حضني، وعرضت عليه بعد أن انتهى من بكائه أن يبقى معي إذا أراد، لكنّه رفض، ثم انصرف وتركني وحيدًا مع فأري.

اليوم الثاني والسبعون

كان يجلس على عتبة المحل، وحين رآني انتفض واقفًا، وقال بسرعة إنّه جاء ليس تطفلاً، وإنّما أحبَّ أن يكون صريحًا معي. قال بلهجة حيادية إنّ ما يُتعبه ليس انقطاع المحبة، هو لم يشعر بأنّه يُحبُّها بقوة، إنما الفقْدُ، ففي الثلاثين ليلة التي قضياها معًا كانت أشبه بالزوجة. الآن، أصبح لديه مشكلةٌ كبيرةٌ في التعامل مع الأشياء التي اعتاد أن تشاركه فيها، كسريره مثلاً.. وقت المغربية.. أصوات الانفجارات.. سكتَ قليلاً، ثم نظر إليَّ وإلى الفاترينة، وأشار بيده متسائلاً.

حكيت له، ليس حرجًا منه، وإنّما رغبة في مساعدتي لإيجاد حل ما، فأخبرته بأنّني أعتقد أنّ أبي سيعود على هيئة فأر. جاءني خاطرٌ ما، سنكون في يوم الاحتفال بالألفية الجديدة. سيرن جرس الهاتف في غرفة أمي، بينما نحن نجلس في الغرفة الأخرى، نشاهد الحفلة في التليفزيون المعطوب، ستكون خالتي على الناحية الأخرى من الهاتف، ستخبر الشخص الذي رفع السماعة، بعد لجلجة كبيرة، بأن أبي اتصل من "ميت غمر"، وقال إنّه في طريقه إلينا. في الأصل، لن أكون معهم في البيت؛ بل سأكون في الشارع، أحاول أن أنفذ إحدى خططي في الحصول على نقود.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سأجلس على الرصيف، وأنظر إلى بلكونتنا في الدور الخامس، وأنادي على أمي بصوت عالٍ، سأتوقع أن ترد عليّ، فأطلب منها بكل ما فيّ من عزم أن تلقي إليّ بخمسين قرش، سوف تُحرج، وتقول من تحت أسنانها: "طيب"، وتختفي. ثم ستظهر أختي بدلاً من أمي، وستشير إليّ بأن أصعد. أختي لها دلالة صدق، لو كانت أمي لما صعدتُ، وكنتُ سأبذل مجهودًا مضاعفًا في أن أُسبّب لها حرجًا أشد حتى ترمي لي بالنقود.

لن يعني لي خبر عودة أبي بعد أربع سنوات غياب إلّا شيئًا واحدًا: أن جسمي الهش لن يوجَع مرة أخرى من الجَر والسحب في مشاوير أمي عند الأقارب والعباد لنسأل عن أراضيه. البيت سيصبح خليّة نحل، كلٌ منّا له مهمة. ستكون مهمتي هي البقاء في البيت باعتباري الذكر الموكّل باستقباله. سأذهب إلى غرفة أمي، وأتمدد على السرير تحت المروحة، وهناك سيترسّخ داخلي بأنّ أبي سيعود على هيئة فأر.

اليوم الخامس والسبعون

كان يقف أمام المحل وفي يديه شاكوشان، رمى لي واحدًا، وقبل أن يكسر الڤاترينة، وعدني بأنّ أبي لن يؤذَى. كان أشبه بكمين منصوب لنا، وليس كما تخيّلنا بأنّنا ناصبيه. بعد أن هوى الزجاج؛ هُوجمنا، أول ركلة كانت في ظهري، فسقطتُ على الأرض، ومن ثَمّ توالت الركلات في أنحاء جسمي، حتى فقدتُ الوعي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اليوم التسعون

لا أعرف كيف نُقِلتُ إلى الرحم، ولا ما حدث لأبي في الأسبوعين اللذين قضيتهما في تلقي العلاج، كان هو من سيطر على عقلي، حاولت أن أخرج فكسفني جسدي، لم أستطيع التخفيف من إحساسي بالذنب، بقول: إنه فعل ذلك بإرادته؛ بل هو في الأصل من أصر على تلك الخطوة، وجلب الشواكيش معه، خصوصًا أنه من ضمن احتمالاتي القوية، أنه مات.

اليوم السابع والتسعون

مصائدي لن تُفيد، ولا يوجد احتمال أنْ أجد أبي معروضًا ثانية في ڤاترينة.

كان فص ملح وذاب.

اليوم الواحد بعد المائة

كنتُ أجلس في المقهى، بعيدًا عن الضوضاء، أشرب شايًا، حين دخل، وقفتُ مبتسمًا وأشرت إليه أن يأتي. لم يرد، ذهب وجلس على طاولة أخرى. حملتُ مقعدي ووضعته أمامه، وقلت مبتسمًا: "الجو برد". هز رأسه تماشيًا معي. حاولتُ أن أذكّره بي، فلم يتذكّر. كنتُ أسمعهم يقولون دون أن أصدق: "من ينتقل إلى مرحلة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخرى، ينسى ما حدث في السابقة". ثم تحديد نوعه، وكما كان موقتا أصبح ذكرًا. اعتذرت منه، وحملتُ مقعدي، وعدتُ إلى طاولتي. كنتُ فَرِحًا من أجله، لنسيانها، ونسيانه للبرد، وللشك إذا كان أحبها أم تعوَّد عليها، وللركل الذي تلقاه، وعلى الرغم من ذلك، لم يحزنني أنه نسيني.

اليوم العاشر بعد المائة

لا أجرؤ على الذهاب إلى المحل، لأعرف إذا كان أبي ظل هناك أم لا! بقي لي أربعون يومًا على تحديد نوعي، ومائة وستون يومًا على ولادتي، ولستُ على يقين أنني سأنسى شيئًا جوهريًا كهذا. وإذا نسيت سيكون بعد أربعين يومًا. وخلال تلك الأيام لا أضمن أن أظل صامتًا، أحمل عبئًا كهذا. لا أريد أن أفعل كما فعل هو. أن يجلس مع غرباء ويحكي لهم ما حدث له. أحتاج إلى وهم مثل ابتياع أي فأر ومعاملته على أنه أبي، لكن وجود الفأر المزيف دليل على فقدان ما.

أحتاج إلى شيءٍ أكبر مثلما في ليلة الألفية. سأكون جالسًا بين أخواتي، أشاهد الحفلة في التلفزيون المعطوب، وألعب في ضفيرتي، سيأتي خبر عودة أبي، الذي سيعني لي الكثير، فأنا دائمًا ما أكون وسط جلسات أمي، خالاتي، وأخواتي الأكبر سنًّا، أتحمل همَّ أمي، والتلسين عن أبي الذي تزوج مرة أخرى وتركنا. حين تُكلَّف بالمهام، لن أرضى بالكسل والاستلقاء على السرير تحت المروحة، وأدع لشيء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كـ"عودته على هيئة فأر" أن يترسّخ بداخلي؛ بل سأساعدهم في تنظيف الصالة، وحين يأتي في حوش العمارة، سأكون واقفة خلف الباب في انتظاره.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لصوص النوم

كان يومي يبدو اعتياديًا، كأيام كثيرة قبله. قضيته في العمل. أرتشف القهوة باستمتاع. أنظر من نافذتي إلى النيل. أفكر في فراغي العاطفي وخططي المستقبلية، لكن حين عدتُ إلى المترل، تبدّل الأمر كليًا. كانت عادتي حين أصعد سلم الطوابق الخمسة في البناية، أن أستند بذراعي على الحائط مستجمعًا أنفاسي، ثم أطرق الباب. هذه المرة قبل أن أستند، جُذب الباب إلى الخلف مرة واحدة. ظهرت أختي على يسار الباب، بجسدها النحيل ونتوء حَمْلها الذي بلغ الشهر الثامن، ثم أمي البدينة في الوسط، وجدتي القصيرة تتكئ على عصاها وتبعد عن أمي قليلاً على اليمين. في نهاية الصالة، كان هناك مصباحٌ ضعيفٌ لا ينير ظلمة حجرة الجلوس. صاحت أختي: "أنا عرفت أنّك سرقت النوم من صالح"، تبعتْها "أنا كمان" من أمي بصوت أكثر انخفاضًا، ثم صوت جدتي لا يُسمع. نظرتُ إلى الأرض وحاولت تجاوزهن سريعًا؛ إلّا أنّهُنّ أحطنني ثلاثتهن، كانت رائحتهن واحدة، تشبه الأكل المسلوق، كن يضربن بأطراف أصابعهن على جبهتي، ومع كل ضربة كنتُ أبتسم في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نفسي كأن الضربة ستعيد لصالح نومه، بخشونة تملصتُ منهنَّ، وذهبتُ إلى غرفتي.

كنتُ ملعونًا، لا أستطيع النوم كالناس الطبيعيين. وفي يوم أتى صالح إلى منزلنا، ثم نام في غرفتي. ومن حينها تبدَّل حالي تمامًا. قبل أن يأتي صالح، كانت مخاوفي متعددة ومُتغيِّرة. في البداية، كان هاجس الموت يتملَّكني، أنَّ روحي قد تطير مني في أي لحظة، فكنتُ أتخيل المنافذ التي قد يأتي منها عزرائيل، ولا أترك نافذة مفتوحة، ولا عقب باب إلَّا حاولت سدَّه.

وعندما أفشل، بسبب أمي أو جدتي، أو بسبب أنَّ هواء ربنا جميل، كنتُ أُخرج سجادة الصلاة، وأصلي حتى أتعب. قد أغفو لدقائق، ثم أستيقظ مفزوعًا كمن وقع في خطيئة كبيرة. وفي يوم جاء عزرائيل وبدلاً من أن يأخذ روحي أخذ فكرة الموت، وبدَّل لي مكانها بكائنين في حجم عقلة الإصبع، أحدهما رفيع تمامًا لونه كسِن الفيل، والآخر بيضاوي الشكل بلون القهوة. كلما أغلقت عينيَّ يحاولان فقعهما؛ لذلك كنتُ أقضي ليلتي مُبرِّقًا في السقف، حتى إذا غفوت لدقائق وعينيَّ نصف مفتوحتين، يأتيان لي في الحلم، وأُضْرَب بقوة حتى تتفتت رأسي، فكنتُ أستيقظ وأنا أشعر بصداع شديد. حتى أتى صالح في ليلةٍ، كي يصالح أختي ويعيدها إلى منزله. وبعد العشاء، أصرَّت جدتي أن يبيت معنا، فنام في غرفتي. ومن يومها أصبحتُ أنام بسلاسة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ما أكّد لي أمر السرقة، ليس إمكانية النوم لمدة طويلة، بلا جسم ساخن أو رغبة عارمة في تقطيع لحمي، ولكن كوني أصبحتُ كالمخبر يتطلع من فتحتين في الجريدة على حياة صالح، ككابوسه المُخجل الذي لا يفارقه منذ الصغر، سرقاته القليلة من دكان البقالة، الاعتداء الجنسي الذي تعرّض له في المدرسة، النساء اللواتي عرفهن قبل وأثناء زواجه من أختي، لكن كل هذا لم يشغل بالي، فما المميز في حكايات تتشاركها مع آخر؟ لا أنكر استغلالي لها في مناكفة أختي، أسرد لها شيئًا ثم أنصرف إلى غرفتي صامتًا، ولا أرد على أسئلتها بعد ذلك. بعد فترة تعود إلينا، وتحت عينيها كدمات زرقاء من الضرب. ما يهمني حقًا ما لا يعرفه صالح، أنّه قبل أن يكون "صالح أحمد العجمي"؛ كان "أحمد خليل خطاب"، أو "أحموده" كما كانوا يُدلّلونه. كان كل يوم، في التاسعة صباحًا بعد تناوله للإفطار، يجر دراجته ذات السنادات، من غرفته في الطابق الأول أمام بوابة البناية، يمتطيها ويظل يدور حول نفسه، يرى الخطوط الدائرية التي تشكلت على الأرض. كانت تلك الخطوط تُلهِمه، ويحاول أن يربط شكل تلك الخطوط بحياته المستقبلية؛ إلّا أنّ إصابته بالتيفود حالت دون ذلك. تُوفّي وهو لم يتجاوز الثامنة، دون أن يتحقق من صحة ما توقعه. ولا يعرف أنّه قبل أن يكون "أحموده"، كان فتى مدام إيمان الوشيك. كانت المدام المتزوجة حديثًا، والتي تسكن على مسافة خمسين مترًا من منزل أحموده، تمرر يدها على بطنها، وتحلم بالولد الذي سيصنع لها طائرات ورقية، ليطيراها معًا في شهر رمضان. عاد الأستاذ حمدي زوجها قبل أذان العصر بقليل، يحمل معه فخذة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خروف، ألقاها على رخامة المطبخ، وأبلغها بعدد المدعوّين على إفطار اليوم. كانت كالنحلة تنجز أعمالها كسيدة الولائم. عند أذان المغرب وهي تجهز السفرة؛ انكسر طبق شوربة على يد مدام إيمان وجرحها، واساها الأستاذ حمدي وقبّل شفتيها، وبعد انتهاء الإفطار وانصراف المدعوّين، نزل الجنين في المرحاض. هناك أسطورة عن بقاء الروح لمدة طويلة في المصرف، قبل أن تنتقل إلى رحم أم أحموده، لكنّي لا أؤمن بالأساطير. ولا يعرف صالح أنّه بعد أن يموت، ستنتقل روحه إلى شجرة تبعد خمسة أمتار عن قبره.

لم أعد أعرف ما عليَّ فعله، وقد علمت النساء الثلاث بسري. هل سأكون آمنًا إذا بقيت في المنزل؟ لا أستطيع ضمان ذلك، فأنا أعرفهنَّ جيدًا؛ شرسات مع الأقرباء، مُغازِلات للغريب.

كنتُ ممددًا على سريري، واضعًا ذراعي على جبهتي، أسمع نحيب أختي قادمًا من الخارج، أنظر في المرآة التي أمامي، متطلعًا إلى وجهي شديد البياض وعينيَّ المدفوستين وسط خديَّ الممتلئين.

راحة البال والنوم الطويل خلقا لي شراهة غير طبيعية للطعام. ابتسمتُ ابتسامة سخيفة جدًّا. كنتُ لا مباليًا. لم يُثر نحيب أختي فيَّ شيئًا. حياتها مع صالح كانت عذابًا مهلكًا. الآن كلّما جلست على كنبة الصالة الزرقاء، وأمسكت سماعة الهاتف، وبدأت تقول بلهفة ممزوجة ببكاء هادئ "أنا بحبك.. أنا بحبك"، كنتُ أضع إصبعيَّ في فتحتي أذنيَّ. أشمئز عندما أسمع شخصًا يعبر عن مشاعره. بعد انتهاء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المكالمة التي يسمعها صالح فيها فقط دون أن يتكلم، تحكي عن التغيُر الذي أصاب صالح. كانت تستيقظ في عز الليل فتجده ينظر إليها بعين مُحبة، ثم يمسد شعرها، بحنان لم تكتشفه فيه إلّا مؤخرًا، ثم عندما أوسع نطاق محبته ليضم كل المحيطين به، كان يحلُ الخلافات بين الناس. يُحسِن إلى الأرملة، يعطف على اليتيم. عند الضحى، كان يخرج إلى الشارع يطعم الحيوانات. كانت تقسم بأنّ الطيور كانت تشرب من يده، ثم أصبح منخولاً: عين لا ترمش.. لسان لا يتكلم.. قضيب لا ينتصب.. رِجل لا تتحرك. جاء إخوته وأخذوه بعيدًا، وطلبوا منها العودة إلى بيت أهلها. كانت تبكي لأنّها لا تستطيع أن تكون ترابًا تحت قدميه.

سمعتُ "آهةً" كبيرة خرجت من أختي، ثم تبعتها أمي بـ"يا ابني!"، ثم صوت جدتي الذي لا يسمع. لم أجرؤ على الخروج من غرفتي، كنتُ ألتصق بالباب مسترقًا السمع، مستوضحًا ما يدور في الخارج. حتى اتضح لي الأمر. مات صالح في المستشفى. أغلقت باب غرفتي بالمفتاح، ثم الإضاءة. تمددتُ على السرير، وذهبت في نوم عميق.

صباحًا، سمعتُ طرقًا على الباب. كانت أمي. أخبرتني بضرورة ذهابي معهن إلى العزاء. حاولت التهرُّب منها لكنّي فشلت. كانت الشمس حارقة ولا يُتوقع هبوب أي نسمة هواء، ترعى تحتها كثير من الماعز السائبة. كان شكل هذه المقابر غريبًا. تتكون من دورين، لون باب الدور الأعلى أزرق، والأسفل وردي، وفم المقبرة يُقفَل بقفل حديدي، وعند نهاية كل مقبرة توجد شجرة طويلة، ترمي بظلها على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السطح. كنتُ أقف متخشبًا لالتصاقهن بي. النعش على الأرض أمام المقبرة المفتوحة، ومن حوله الحاملون، مرتدين ألوانًا مماثلة للون فوهات المقابر، قميص بنفسجي وبنطال أزرق. كلما اقتربت مِعزة من النعش، أبعدها أحدهم بعود خشب أو حصاة. بعد انقضاء درس العظة، رفع الحاملون جسده، فدفعوني إلى الأمام. دار الحاملون حول المقبرة مرة.. الثانية.. الثالثة.. الرابعة.. في كل مرة كانوا يدفعونني إلى الأمام، حتى أصبحتُ مقابلاً للمقبرة المفتوحة. ندت صرخة كبيرة من أختي، كانت صرخة الطَلق. قلت لنفسي: "أختي ستلد الآن!". وكأني كنتُ أذكّر نفسي بشيء نسيته تمامًا. رددتها ثانية، وأيقنتُ أنّ الولد القادم آتٍ ليسرق مني النوم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قُربانا

لمح مجدي -بالصدفة- إعلانًا كُتِب بخطٍ صغير، أسفل زاوية في إحدى صفحات جريدة محلية. ولأنه فضولي، أزاح طبق الطعام جانبًا، دفع مقعده الخشبي إلى الخلف، وقام ليبحث عن عدسته المكبرة، حتى يتبيَّن تفاصيل الإعلان.

وبعد أن أعاد القراءة مرة وأخرى، شعر للمرة الأولى بأنَّ هناك طريقًا للنجاة. كان الإعلان عن عودة مسابقة "قُربانا" التي عادت بعد انقطاعٍ دام عقدًا كاملاً. تم الإعلان عن المسابقة أربع مرات، نُفِّذَتْ لمرة واحدة، وأُلغيتْ ثلاث مرات، على الرغم من الإغراءات الكثيرة التي قدمها القائمون على المسابقة لحثّ الناس على الترشُّح.

كانت شروط الترشُّح أن تكون سليم البنيان.. حسن الهيئة.. خاليًا من الأمراض. والفائز سوف يحظى بجنازة مهيبة، تُذاع مباشرة على قنوات التلفزيون المحلي، وسوف يُقام له تمثال صغير، يُوضع في مدخل المدينة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لثوان تخيَّل مجدي نفسه محمولاً على الأعناق، وسط جنازة شعبية مهيبة. يبكيه الكثيرون بحرقة، بقدر الأذى الذي رآه.

وقبل الدفن، يُلقي أحدهم الخطبة التي سيُعدُّها مجدي بنفسه، مُعلنًا فيها براءته، ويروي فيها فصولاً من المعاناة التي مرَّ بها.

منذ عامين، اشترى مجدي مُبرِّد مياه شكرًا لله على نجاته من حادث سيارة. وُضع المُبرِّد على جانب الطريق العمومي، ناحية مصرف انجاري، محاذيًا لكشك السجائر. روى المُبرِّد ظمأ كثيرين، ورطَّب الوجوه الجافة، وصار سبيلاً لسرقة الأكواب المعدنية.

وفي يوم ما ـقبل صلاة الفجر بوقت قصيرـ اتجه شابان إلى المُبرِّد كانا قد فرغا من لعب كرة القدم. وقف أحدهما يملأ الكوب المعلق بالماء، فانتقلت شحنة كهربائية من المُبرِّد إلى جسده. جذبه صديقه إلى الخلف محاولاً إبعاده، فانتقلت الشحنة الكهربائية إليه؛ فأردته قتيلاً.

استيقظ مجدي يومها مذعورًا، جراء ضربات قوية على باب شقته. انتفض مسرعًا بملابسه الداخلية ليفتح الباب، فتلقى دفعة قوية في صدره أسقطته على الأرض. وبعد معاناة، اتضح له من بين السباب والصياح، أنَّه متهم بقتل الفتى الصغير.

لوهلة سيطر على مجدي شعور بالدهشة.. أيُّ مُبرِّد؟ وأيُّ فتى؟ حتى تذكَّر بصعوبة في النهاية. أنكر مجدي صلته بالمُبرِّد بعد شرائه، فلقد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في مكانه. أنقذه من الضرب المتوقع كهلٌ ظهر فجأة من بين الناس. سحب الجمع، مُتعلّلاً باقتراب موعد جنازة الفتى القتيل.

ولأنّ مجدي لم يكن مُدانًا، ولم تثبت ضده أي تهمة، فقد حوّل أهل الفتى القتيل، وأهالي الحي المتعاطفون معهم حياة مجدي إلى جحيم. لصقوا صورته على الجدران في كل أرجاء المدينة، وفي القرى المجاورة، وكتبوا تحتها: "قاتل".

وكلّما حاول مجدي أن يبدأ حياة جديدة في مكان آخر، كانت تنهال عليه أكياس القمامة.. أكوام الحصى.. أو يركض الأطفال خلفه، يمسكون مؤخرته، ثم يركضون بعيدًا، مع سيل من الضحكات الهازئة.

وبعد عدة محاولات فاشلة للخروج، اضطر مجدي أن يعود إلى مكانه القديم يستقبل اعتداءات فردية، اعتاد عليها مع الوقت، لكنّه لم يتوقع الحدث الأكبر.

في ذكرى وفاة الفتى، دهن أهله والمتعاطفون معهم البناية التي يسكنها مجدي، والبنايات المواجهة لها، والبنايات المحيطة باللون الأسود. وباللون الأبيض رسموا صورًا للقتيل وهو يأكل.. وهو يشرب.. وهو نائم على بطنه.. وعلى جنبه الأيمن.. وجنبه الأيسر.. وهو يتأمل السقف.

رسموا تخيُّلات لمسار حياة الفتى الطويل.. رسموه في حفل تخرجه.. وهو يعمل في الخليج.. رسموا صورة له مع زوجته.. ومع مولوده الأول..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهو وسط أبنائه بعدما كبروا.. رسموا صورته وهو عائد من رحلة الحج.. رسموا حتى جنازته.. رسموه عجوزًا طاعنًا في السن، قرروا أن وفاته ستكون بعد عمر مديد.

كان الحاج حسين صاحب "فراشة حسن وحسين" من أشد المتعاطفين مع أهل القتيل. وفي أي وقت يشعر فيه باشتياقٍ شديد مفاجئ لأم القتيل -حبه القديم- ينصب سرادقًا أمام منزل مجدي.

يغلق أهل القتيل بوابة منزل مجدي بالجنزير إذا كان بالداخل، وإذا هرب، يبحثون عنه حتى يقبضوا عليه ويعيدونه إلى الشقة، ثم ينصبون السرادق في الشارع الضيق أمام منزله مباشرة.

تُسلَّط الأضواء على الصور المرسومة بالأبيض على الجدران السوداء.. تسرد أمه بصوت باكٍ انطباعات وآراء ابنها الراحل المتوقعة عن الأحداث الجارية، في الدنيا والعالم، وتنتهي الليلة بالدعاء على مجدي القاتل، ويؤمِّن المتواجدون في السرادق.

تضاربت أحاسيس مجدي تجاه ما يحدث ضده. في البداية اقتنع أنه السبب في وفاة الفتى. وحين لا يجد دليلاً دامغًا، يُسكت نفسه ويقول بأنه هو من ابتاع المُبرِّد. ويتقبَّل المضايقات بشكل مبدئي؛ ليخفف من إحساسه بالذنب.

لكن بعدما تكرر نصب السرادق -بشكل شبه أسبوعي- تحوَّل إحساسه بالذنب إلى رغبة حارقة في إسكاتهم. ومرة فتح النافذة الصغيرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المطلة على السرادق، أمطرهم جميعًا بالسباب، ولم يسمعه أحد من شدة الصخب.

وحفاظًا على الطاقة المُهدرة، أمسك مجدي منظاره المُقرّب، تطلّع إلى كل الموجودين في السرادق، ودوّن أسمائهم واحدًا واحدًا، رغبة منه في انتقام قريب.

تخيّلَ أنّه في ليلة من ليالي الاحتفال، سيقفز من الشباك، وينزل بسكين كبير، ينظر في عيونهم مباشرة، ويُفرغ غضبه في ضربات تدميهم، وتجعلهم لا يقوون على الحركة.

لكن الحقيقة أنّ مجدي صار هزيلاً جدًا، أنحف من عود قصب. فكان يصاب بالإحباط، الذي لم يكن يدوم طويلاً بسبب رغبته القوية في الانتقام. حتى قفزت في رأسه فكرة، أن يقوم بتعديل جسده كليًا.

بحث في أشكال وأجساد المقاتلين، بداية من الحروب قبل الميلاد، وحتى الحرب الكبرى. قارن بين الأجسام، انتقى المقاييس المناسبة، عرض الكتفين والصدر، الطول، شكل الرأس والجبهة، تشريح العضلات وحجمها، ورسمها على ورقة بيضاء.

وبعد أن انتهى من شكل جسمه المنشود، أصبح يخرج كل يوم في بداية نهار الله، يبحث في المستشفيات عَمَّن يقوم بتفصيل تلك الرسومات على جسده.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تلقى ردودًا ساخرة حتى أُحبط وظل قابعًا في ظلام الغرفة لفترة طويلة. حتى عاد مرة أخرى إلى منظاره، يبحث عن خطأ أو زلة يستطيع إمساكها على أحدهم. يستطيع استغلالها في استمالته إلى صفه.

رأى مجدي سمسمة الحلاق، يبيع تذاكر لحفل العزاء للقادمين من المناطق المجاورة. وحين هدده مجدي بفضحه، أطلق سمسمة الحلاق إشاعة مفادها أن مجدي يتلصص على النساء العاريات من الشباك. فزاد غضب الأهالي ضده، حتى كادوا يفتكون به، قبل أن يلتزم الصمت نهائيًا. وخصوصًا بعد محاولة انتحاره والتي باءت بفشل ذريع.

لذلك تعاظمت لدى مجدي ضرورة الترشُح لمسابقة القُرية. وأيضًا تعاظم شعوره بالعجز والذنب، إذا ضاعت الفرصة منه، تحليلًا بعد إذاعة الإعلان في التلفزيون المحلي.

جلب مجدي منشارًا كهربائيًا، وخرج إلى الشارع بعد منتصف الليل. بحث عن صناديق البريد، وقطعها من الخلف، فحص الأظرف، لكنه لم يجد أي رسائل أُرسلتْ على عنوان المسابقة. وعند أخر صندوق فكر أنه إذا لم يجد الرسائل، فسيقوم بالذهاب إلى مقر اللجنة. لكن تم القبض عليه بتهمة تخريب الممتلكات العامة.

كان السجن مريحًا لمجدي. فالزنازين خالية، ولا يوجد من يتهمه بالقتل أو التخريب، وتدريجيًا سينساه الناس بالخارج، وهو سينسى الناس. كان السجن بديلاً عن الراحة التي أرادها بالترشُح للمسابقة وتأكد حينها أنَّ الفرصة قد ضاعت منه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت فترة سجنه منعبة للأهالي. كانوا يعزون أنفسهم بأنه حتما سيخرج، ويعود إلى بيته، يغلقون عليه الأبواب، ويلعب دور القاتل الذي يتلقى الإهانات بصدر رحب. وأصبحت الاحتفالات بلا أي متعة رغم استمرارها.

لم يعد الحفل مَقصدًا للباحثين عن زوجات، أو للباحثات عن أزواج. لم يعد فرصة لتباهي النساء بزينتهن، ولا سبيل العجائز للترويح عن النفس وتذكُّر الموتى، لم يأتِ أحد من القرى المجاورة. وببطء في البداية وعلى استحياء، بدأ الناس يطلبون من الله فكَّ سجن مجدي.

يوم إعلان نتيجة المسابقة، كان مجدي يدور في زنزانته، ناسيًا مُبرِّد المياه، والفتى المقتول، والإهانات، والخطاب الذي أرسله إلى لجنة المسابقة. كان ناسيًا لكل شيء. وأخذ يسلي نفسه بحفظ الكلمات والأشكال المكتوبة على الجدران.

أمَّا خارج الزنزانة، شعر الجميع أن الزمن توقف في انتظار تلك اللحظة، لحظة إعلان النتيجة. أسندت أم الفتى ذراعيها على رخام المطبخ. تطلعت سرًّا إلى تلفزيون صغير موضوع على النملية.

مدد سمسة الحلاق جسده بين مقعدين خشبيين، ناظرًا إلى التلفزيون الموضوع على طاولة خشبية صغيرة. امتلأ المقهى بالناس، اختلطت نظراتهم إلى التلفزيون بدخان الشيشة، برفرفة جناحي صقر محبوس في قفص بجوار التلفزيون.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وخلال ذلك، جلست رئيسة لجنة المسابقة وحيدة في مكتب مأمور السجن. تمنت أن يأتي المأمور، أرادت أن تنهي مهمتها، وتخلع نعليها الضيقين، وتفكر في الإجازة التي ستحصل عليها فورًا، بعد الانتهاء من المسابقة.

أُعلنت النتيجة بعد مقدمة المذيع الطويلة، وفاز مجدي بجدارة، فهو الوحيد الذي قدم أوراقه لهذه المسابقة.

انتفض مَن بالمقهى غاضبين. خرج الأهالي من البيوت غير مصدقين، ومعهم أم الفتى التي لم تتوقف عن الضرب على صدرها. ركضوا جميعًا باتجاه السجن القريب، مُحمَّلين برغبة في تلافي الفقد القادم. أمسكت رئيسة اللجنة بيد مجدي، جرته كأنه طفل صغير. كان مذهولاً لا يستطيع لملمة نفسه، خصوصًا بعدما علم أن التنفيذ سيكون في فجر اليوم التالي.

ركبا سيارة فولكس حمراء، حاول مجدي إعادة التفكير في الخطاب، لكن الشرود سيطر عليه، خلال ذهاب السيارة إلى مقر اللجنة.

تفاجأت رئيسة اللجنة بشخص وقف أمام السيارة، ضغطت على المكابح بقوة قبل أن تصدمه. ثم تكالب الأهالي على السيارة، أخذوا مجدي بالقوة، وعادوا به إلى بيته، قيدوه في مقعده الخشبي، ثم نزلت عليه أم الفتى القتيل بالضرب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جاءت رئيسة اللجنة ومعها عدد كبير من الرجال. دارت معركة طويلة، واستطاعت رئيسة اللجنة في النهاية أن تحرر مجدي. وحُمل إلى السيارة الفولكس مرة أخرى. ثم قدمت له رئيسة اللجنة، عددًا من الكرات، وطلبت منه أن يختار إحداها. وبوهنٍ شديد، مدّ مجدي يده وسحب كرة، ظل ممسكًا بها لفترة، رفع يده عاليًا، وألقاها باتجاهها.

سارت السيارة في شوارع مهجورة، حيث لا يكسر حدة الصمت سوى نقيق الضفادع. كان مجدي نائمًا من التعب على أريكة السيارة، في دعةٍ وهدوء لم ينلهما منذ وقت طويل. ثم توقفت السيارة، أمام بيت صغيرة وسط الخلاء. فتح باب السيارة عدد من النساء، حملن مجدي إلى الداخل، ثم وضعوه على الأريكة.

كان الجو كئيبًا مقبضًا، فنظرن إلى بعضهن وابتسمن. ثم انطلقن برشاقة يخلعن ملابسهن، ووقفن بقمصان داخلية زاهية الألوان. أطلقن الموسيقي في البيت، ثم ذهبن إلى المطبخ ليصنعن الحلاوة لنزع الشَعر.

روتْ كل منهن تجربتها الأولى في نزع الشَعر، محاولات استشعار الألم الذي سيحس به مجدي. خرجن من المطبخ، وهن يتمايلن مع الأنغام والإيقاع. أطلقت إحداهنّ زغرودة مجلجلة. جردنه من ملابسه، والتففن حوله، نزعن الشَعر من جسده بسرعة شديدة.

ندت عنه آهات خفيفة تعبيرًا عن الألم. ثم ذهبن به إلى الحمام ليستحم. داعبن قضيبه، كما يداعبن خد طفل صغير، سألن القضيب إذا كان فرحًا أم لا، وحتى لا يتسرب الحزن إلى نفوسهن أجبن بـ"نعم"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قوية عالية. ألبسن مجدي فستان زفاف أبيض، بعدما قصصنه حتى منتصف الركبة، كحلن عيونه، وضعن له أحمر شفاه، خبأن علامات الضرب ببودرة حمراء، ثم غطين وجهه بقطعة قماش شفاف.

اقترب الفجر، وجاءت سيارة نصف نقل، مددوا مجدي في صندوقها. تحركت السيارة باتجاه الكورنيش، وحين ظهرت وسط الناس، ضحك كل من رآه. قالوا أعمى من يرضى بزواجه.

صعدت السيارة إلى كوبري عالٍ، رفعوا مجدي وألقوه من فوق الكوبري. وحين سقط في النيل، هلل الناس معلنين عودة عروس النيل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حكاية الأخ العائد والأم التي أصبحت قطة

عندما رن جرس الباب، كنّا نجهز طاولة الطعام. قلنا في صوت واحد: "مين؟"؛ فلم يجب أحد. وتوجهنا جميعًا إلى الباب. وعندما فتحناه، ارتمى على الأرض فتى بجسد نحيل. وخلال حمله عن الأرض ووضعه على الكنبة الحمراء المجاورة لباب الشقة، سمعنا صوت ماما يأتي من المطبخ تسأل عمّا يحدث في الخارج.

بعدها كانت تقف على عتبة المطبخ وفي يدها سمكة كبيرة. قالت:

"ده ابن كلب، خرّجوه بره".

ثم قذفته بالسمكة، واتجهتْ إلى غرفتها.

التقط الفتى السمكة بفمه وراح يأكلها. لكنّه حين لاحظ وقفتنا المتسمرة ونحن نتطلع إليه في صمت بصق ما في فمه، وعادت ملامح التعب إلى وجهه، ثم حكى أنّه أخونا. أي نعم.. أخونا الذي تُوُفِّي منذ سبعة وعشرين عامًا، وكان عمره حينها ستين دقيقةً فقط. وإنّه بعد وفاته ظل يعمل بجهد بالغ في شق الأنهار، وتجميع الحطب، وإضرام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النار، حتى ينال لقب العامل المثالي، والذي من ضمن جوائزه تذكرة عودة إلى الأرض بأي شكل يحبه. وقال بحزن إنه استنكر معاملة أمه التي جاء من أجل أن يرمم قلبها المكسور عليه.

لم يكن همنا صدق كلامه أو كذبه، ما كان يهمنا حقًا هو اعتراف ماما به. فإذا حدث ذلك، سيُشبع لنا شيئًا ناقصًا في حياتنا. كانت حياتنا خالية تمامًا من الذكور. في صغرنا كان لدينا تصوُّر أن أجساد الذكور تشبه أجسادنا تمامًا، فقط شعورهم لا تنمو بالقدر الكافي. فضلاً عن أنّ وجوده سيجعل الأعباء الثقيلة تنتقل إلى كاهله عنّا.

وقف بعضنا يُطيِّب خاطره، وذهب البعض الآخر إلى غرفة ماما التي أخذت شيئًا من الدرج، وعندما رأتنا خبأته في صدرها، ثم استدارت إلينا وقالت بصوتٍ حاد: "خرجتوه بره؟"

أربكنا السؤال، لكنّنا أدركنا الموقف وعاتبناها، كيف لم تخبرنا بوجود أخ لنا توفي وهو صغير؟ قلنا لها إنّه قد ينفعنا؛ فهو ما زال صغيرًا ولديه القدرة على العمل في المزرعة أو في حظيرة الخيول، أو على الأقل الوقوف على بضاعتنا في السوق. وذكّرناها بكثيرين عادوا بعد موتهم مثل ابن عم جمعة الذي دهسته سيارة وهو في الثالثة، وقد أصبح الآن جزارًا كبيرًا في سوق الجمعة يدر على أبيه مالاً كثيرًا. ذكّرناها أيضًا بابنة طنط نادية التي توفيت بمرض نادر، ثم عادت وأصبحت نجمة الشاشة الأولى. قاطعتنا وقالت: "مش هتخرجوه يعني؟"، وقبل أن نسألها لماذا لا تريده؛ هبَّت واقفة، واتجهت مباشرةً إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خارج الغرفة، والحمد لله منعنا هجومها عليه بالمقص الذي أخرجته من صدرها. فلو فشلنا لعنفتنا في اللحظة التالية على كيف نتركها تقتل إنسانًا هو أخانا؟ يا لنا من فاسدات!

قال أخونا العائد بعد محاولة الهجوم عليه:

"عايزة تقتليني يا رقية؟ والله لأقول لعيالك على كل حاجة".

ثم دخلا في شجار وارتفعت أصواتهما. كانت ماما عند غرفتها وهو بالقرب من باب الشقة، ونحن في المنتصف نفصل بينهما بأعدادنا الضخمة، نحاول أن نُصغي لكي نتبين ما يقولان. لكننا فشلنا.

دام الشجار لفترة طويلة، ولم نعرف كيف نوقفه، ثم فجأة انقطع التيار الكهربائي فتوقف الشجار تمامًا، ومكثنا في المنتصف حتى نمنع اقتراب أي منهما من الآخر.

عاد التيار ثانية، فعاودت أمي الشجار، لكنَّها لم تجد ردًّا مقابلاً من أخانا، واكتشفنا اختفاءه، فظهرت على ماما علامات الارتياح، كأنَّ حملاً ثقيلاً انزاح عن صدرها. وتظاهرنا رغم حزننا الشديد بأنَّ شيئًا لم يحدث. ثم سمعنا صوت قطة تأتي من المطبخ، فركضت ماما إلى المطبخ وهي تمسك في يدها بالمقص، وما إن دخلته حتى انقطع التيار الكهربائي مرة أخرى ولفترة أطول هذه المرة.

عندما عاد التيار لم نجد ماما، ثم سمعنا فقط صوت عِراك قطط في المطبخ، ثم قفزت قطتان على طاولة الطعام ومنها إلى النافذة المفتوحة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أسرعنا باتجاه النافذة، نظرنا إلى أسفل وإلى أعلى فلم نجد شيئًا. فرحنا لتخلُّصنا أخيرًا من ماما، ولأنه أصبح الآن من الممكن أن نحصل على حريتنا. أعلنت كل منّا عن خطة تنفذها قريبًا، وسعدنا بالحياة السلسة القادمة. شعرنا بالجوع، فقمنا إلى المطبخ لنستكمل تجهيز طاولة الطعام.

خلال تناولنا للطعام، قفزت قطة على الطاولة، دون أن نعرف من أين جاءت. كانت مصابة في عينها اليمنى. تطلعنا إليها محاولين معرفة أهي ماما أم أخونا؟ لكننا فشلنا. فردت القطة جسدها على الطاولة، ثم أغمضت عينيها. نظرنا إلى بعضنا منتظرين مَن سوف يلقيها من النافذة، لكن كانت للقطة مهابة شديدة منعتنا من ذلك. فألقينا إليها قطعة سمك، وعدنا إلى الأكل الذي كان قد برد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حكاية حريق الأرشيف والأجندة التي تعرف

فور وصول الأستاذ مصطفى إلى الشركة التي يعمل بها، تم استدعاؤه إلى الشؤون القانونية لاستجوابه فيما يعرف عن حريق الأرشيف الذي حدث بالأمس.

وعندما أنكر معرفته بالأمر، وُجِهتْ إليه مباشرة تهمة حرق الأرشيف، وقيل له إن من مصلحته أن تتم تسوية المسألة قبل تدخُّل الشرطة، فتوجه الأستاذ مصطفى إلى أجندته على الفور.

في بداية عمله كان موظفًا فاشلاً ـ كما قال عنه رؤساؤه، وعندما يُسأل عن مهامه يقول بكل أريحية إنّ أحدًا لم يطلب منه شيئًا، فينفجر فيه رؤساؤه غضبًا.

ثم اهتدى إلى حل أن يسجل في أجندة ما يُطلب منه، فإذا اتهمه أحد بالنسيان أو بمخالفة التعليمات تكون الأجندة هي الحكم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبعد حين أصبحت الأجندة شيئًا رئيسيًّا في حياته. صار مصطفى يدوِّن الأحداث اليومية. وإذا أراد أن ينجو من اتهام أو لوم يأتي منها بما يَدعم كلامه، وإذا أراد أحد دليلاً على كلامه يريه ما كُتِب فيها.

أمام محقق الشؤون القانونية، أخرج مصطفى الأجندة من حقيبته الجلدية.

فتح الصفحة التي كُتِب عليها تاريخ الأمس، فوجد مكتوبًا فيها أنه قام بحرق الأرشيف. وعلى الرغم من يقينه بأنه لم يقم بذلك، اعترف الأستاذ مصطفى بالاتهام الموجه إليه؛ فتم رفده دون أن يأخذ مستحقاته المالية، والتي أبقتها الشركة كتعويض عن التلفيات.

خرج مصطفى من مبنى الشركة وذهب إلى مقهى، جلس إلى طاولة. أخرج الأجندة من الحقيبة وتفحصها ورقة ورقة، فصُدِمَ من عدد الجرائم التي ارتكبها، وهو لا يعرف عنها شيئًا. قال لنفسه: إذا وقعت الأجندة في يد أحد ستكون مصيبة كبرى، فهو لن يستطيع إنكار التهم التي ستوجه إليه. وبعملية حسابية بسيطة، قدَّر عدد السنوات التي سوف يقضيها في السجن، فضربه الجَزَع.

خرج مصطفى من المقهى والأجندة في يده، سار مسافة طويلة ثم توقف. وجد نفسه فوق كوبري، ومباشرةً ودون تفكير رمى نفسه في النيل، تاركًا الأجندة خلفه على الأرض.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مصائد المرأة السمراء

١

كان الجو ضبابيًا، ككوب اللبن، لا ترى طُرقًا. بيوتًا. بشرًا. فقط لمعة الحبر الداكن المطبوع على الأوراق، وهي تنتقل من يد إلى يد. دوى طلق ناري كثيف، فارتمى الرجال على الأرض وهم يقبضون على الورقة التي فضحتهم للتو، التصقوا بالحائط، ثم زحفوا على بطونهم ببطء.

كان المسجد ممتلئًا، برجال لا يعنيهم كثرة التراب على وجوههم، أو بقع الضباب على ملابسهم، أو ما كتبُ في الأوراق، فما كان يعنيهم حقًا تلك الملحوظة التي كُتبت في أسفل الورقة: "أنَّ مَن عليه الدور في الفضح، هُنَّ النساء". تحدث الرجال، في نفس واحد وبشكل غير مُنظَّم، عن الخطط الممكنة للإيقاع بذلك الوغد الذي فضحهم. شُكلت فرق بحث عليها الذهاب إلى القرى المجاورة، تسأل كل من لديه طبَّاعة عمَّن قام بطبع هذا الورق. إضافة إلى فرق رصد سرية، تقف على الأسطح، وتتوارى بين الزرع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢

بينما كان الفاضح يشعر بالإحباط من الأوراق الموجودة بالصندوق، تلك الأوراق المتخمة، التي قدّمت له كلّ أسرار الرجال، تبخل عليه الآن، في معرفة سر واحد من أسرار النساء. ارتطم شيء بالنافذة المشرعة، اعتقد أنّ أمره قد كُشِف، وأنّ الهجوم من أهالي القرية قد بدأ. لكن مرت دقائق ولم يُسمع خلالها أصواتٌ لارتطام أو سباب أو دبيب أقدام. مكث مختبئًا تحت سريره، حتى سمع صوتًا أنثويًا يأمره بالخروج، أخرج عيناه من تحت الكنبة، فلم يجد شيئًا، ثم أخرج نصف جسده، ونظر إلى أعلى، فوجد لوحة لامرأة سمراء.

كانت هناك ظاهرة جديدة، ظاهرة هروب اللوحات من المتاحف. كل الكاميرات لم تُظهِر أحدًا يقوم بالسرقة، وأجهزة رصد الأشباح لم تلقط أي شبح أو روح غريبة قد دخلت المكان، في النهاية دقوا أقفاصًا حديدية حول اللوحات حتى يمنعوها من الهرب.

بلهجة حادة أمرته بالنهوض، فاستجاب لها بسرعة، ثم وبّخته عن: لماذا ورَّط نفسه في هذا الأمر، دون أن يستعد جيِّدًا؟! لماذا عليها أن تساعده في كل مرة، هو الفاشل الذي لا يستطيع أن ينجز أي مهمة؟! كان يتكئ على الكنبة، ونظره مبسوط أمامه على الأرض، كان يرغب في الرد عليها بقوة، لكنّه خاف، ثم بعد صمت طويل، أخبرته بالمكان الذي يستطيع أن يجد فيه فضائحهن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٣

لم يأخذ ما وجده بالقرب من الترعة، تفحص الصور، صورة، صورة، وملأ عينيه منها جيّدًا، ثم تركها كما هي. كان يرفض أن ينشر صورًا فاضحة للنساء، استنكر أن يفعل ذلك، كما أنه لا يعرف إذا كانت هذه الصور تعود إلى أشخاص حقيقيين في القرية أم لا؟! ثم قد تكون هذه الصور فخًّا منصوبًا ليقع فيه. كان يشعر بأنْ تلك اللوحة ستكون سببًا في هلاكه، ثم قفز إلى عقله تفسيرٌ لِما حدث، كان قد وضع الأوراق كلها على المقعد الوحيد في محطة الأتوبيس الواصل بين القرية والمدينة. (وضع الأوراق على المقعد، يخلق فرصة أن يأخذها فردٌ واحدٌ ويلقيها في المصرف، وينتهي الأمر تمامًا)، لكن ما حدث أنّ الأوراق، تساقطت على الناس من مكان عالٍ، وأغرقت القرية كلها.

كان عقله مشغولاً بكيفية التخلُّص منها؟ عندما لمح خلال عبوره من منتصف القرية، عددًا من المراهقين مُعلّقين عرايا على غصون الأشجار، وأجسادهم مخضبة بالدماء، امتلأ قلبه بحزن حقيقي، وتنامى في روحه إحساس كبير بالذنب. عندما عاد إلى البيت، وجد اللوحة تستند إلى الكنبة. تطلعتْ إليه بعبوس، ثم سألته لماذا لم يأخذ الصور؟ كانت تريد أن تبدو أكثر جدية مثل المرة الفائتة، لكنَّها لم تستطع، فضحكت ضحكة طويلة، وحاولت أن تغطي عليها بالصراخ فيه، نعته بالجبن وأن عليه تنفيذ الخيار الأصعب، قال لها إنّه لن يكمل اللعبة. فهددته بأنّها ستكشف أمره، ستجعلهم يقطعونه مثل قطع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطماطم. ثم بدت أكثر حنانًا، قائلة إنها جاءت كي تساعده في الأصل، فلماذا يرهقها، ثم أخبرته بما سيفعل في الخطوة التالية.

٤

كان عليه التسلُّل إلى شقة السيدة عطيات، ويحاول استدراجها للبوح بالأسرار، فالسيدة عطيات كانت مشهورة وسط أهالي القرية بـ"الأذن الكبيرة التي تعرف كل شيء". كانت سيدة في الثمانين من عمرها. تقضي أغلب لياليها في عراك مع كائنات لا يراها أحد إلّا هيَ، مستنجدة بأشخاص ماتوا منذ زمن بعيد ليُخلّصوها من شبح الموت الجاثم على سطح مترلها. كان نساء القرية يعتنون بها، ينظفن خراءها، ويتركونها، ثم يستغَللن شقتها الصغيرة، للراحة من همّ البيوت، والحديث بحرية، حديث ممزوج بنتف الشَعر. كان عليه أن يتلصَّص ويتنصت عليهنَّ، أو أن يدخل إلى الشقة لاستدراج السيدة عطيات لفضحهن.

صعد السلالم، يُقدِّم رجلاً ويؤخِّر رجلاً، وتوقف عند الدور الأخير. كان يتناهى إلى سمعه أصوات السجالات التي تدور بين عطيات وكائناتها. تسرَّب الخوف إلى نفسه، شعر بأنّه أخطأ عندما بدأ في تلك اللعبة، تذكَّر المراهقين المعلقين على الأشجار، وتذكّر شكلها وهي تهدده. لعن اليوم الذي وجد فيه الصندوق ووجد فيه الأوراق، لعن اليوم الذي قرر فيه أن يفضح الناس، ولعنها ـاللوحةـ أكثر. كان يشعر بأنّ الأصوات تقترب منه. صوت السيدة عطيات الجهور، وصوت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الريح الذي يرد عليها فيلعب في قوة الصوت، يرفعه أو يخفضه، فيبدو أشبه بالضحكة أو بالصرخة. كان الفاضح هشًا ولم يتحمل، أحس بماء ساخن يغرق ملابسه، حين نظر إلى أسفل، وجد البول يغرق بنطاله كله.

٥

أمام المقعد الذي وُضِعت عليه الأوراق سابقًا، وقع حادث دموي. كان هناك توكتوك يسير ببطئه المعتاد، حين جاءت من الخلف سيارة نصف نقل، تضع على صندوقها بالعرض باب حديدي كبير. كانت السيارة مسرعة جدًا، مرت السيارة بجانب التوكتوك، فاصطدمت البوابة بالتوكتوك، فجزَّت نصفه العلوي، وجزَّت رأس راكبه. كانت ليلة حزينة على القرية كلها، أشعلوا النار في الدماء السائلة بطول الطريق، حتى يقتلوا شبح المتوفى.

٦

جاءت الحادثة فرصةً للوحة، كانت قد قررت استكمال اللعبة بنفسها. بعد الحادثة، تجمع كل نساء البلد في بيت الشاب المتوفى، للمواساة، وللمساعدة في عمل وليمة العزاء. اقتحمت اللوحة البيت من النافذة. اشرأبت أعناقُهُنَّ، وتطلَّعْن إليها بنظراتٍ قوية، فواستهم بالكلمات الاعتيادية، ثم أخبرتهن بأنَّ هذه ليلة مناسبة جدًا كي يفضحن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنفسهن بدلاً من الفاضح، وإن فعلن، ستجعل الأرض التي يسير عليها، البيوت التي يمر من أمامها، الأشجار، الطيور، حتى الحصى يقول "ها هو، الفاضح". جاء الرد عليها سريعًا، أن قُذِفَتْ بقشر البيض، ثم توالت المقذوفات عليها بكثرة. دارت وسط البيت تتفادى الضربات، حتى وجدت لها منفذًا وطارت خارجة من البيت.

٧

كان الرجال يحملون النعش متجهين إلى المقابر وهم يرددون التشهد بهمة. الفاضح ممددًا على السُلم فاقدًا للوعي. فاضت روح الشبح على الطريق، بعد معركة طويلة مع النار. كانت اللوحة تطير بسرعة بعيدًا عن القرية ولا تعرف إلى أين تذهب. وكان هناك صمتٌ يتزل بهدوء من السماء ليُغلّف القرية.

٨

بعدما لمحن أخر طرف جلباب يخرج من القرية. جلسن على عتبات البيوت، أطلقن زفيرًا طويلاً لتخفيف أجسادهن من حرارة الحزن والطبخ. ضربت إحداهن لمبة عامود الإنارة، فانكسرت، ثم بدأن جميعًا في كسر لمبات بقية الأعمدة. خيم الظلام تمامًا. بدأت إحداهن في الحكي، كان حكي أسرارهن يأخذ شكل كورس منضبط جدًا كأنهن تدربن على ذلك سابقًا، امتزجت أسرارهن مع أسرار الرجال، وتطايرت بعيدًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حكاية المزهرية القاتلة

في الشارع رقم ١٨، حاول زجاج واجهة محل قديم، تجاوز السبعين عامًا، أن يمتلك القدرة على التنبؤ بالموت، لكنه أصيب بشرخ، جراء حجر قُذِف فيه بقصدٍ تام. تعافى الزجاج، لكنه فقد الذاكرة، وانتقلت الرغبة في التنبؤ إلى لمبة عامود إنارة تبعد عشرين مترًا عن الزجاج المشروخ.

كانت اللمبة تقضي ليلها ونهارها مضاءة، وعلى استعدادٍ تام لأن تُضحّي بنفسها في سبيل امتلاك تلك القدرة، لكن اللمبة تحطمت في عراكٍ بين مراهقيْن، قذفها أحدهما بمقعدٍ خشبي.

كان الشارع رقم ١٨ صاخبًا دومًا، لا يمرُّ يوم دون عراك وضحايا كُثر من فصائل الزجاجيات، والفخاريات، والأسلاك، والخشبيات الرقيقة. لم يدم شيءٌ طويلاً سوى الجدران، ومزهرية مَنسيّة على إفريز في الدور الثالث، هي التي امتلكت تلك القدرة على التنبؤ بالموت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قضت ليلتها الأولى تتدرب على عبارات تحذيرية مثل: "اختبئ يا كوب الشاي"، "لا تضيئي نورك أيتها اللمبة".

وفي اختبارها الأول، فشلت المزهرية فشلاً ذريعًا؛ إذ لم تمارس تمارين التنبؤ نظرًا لغرقها في سبات عميق، ثم اكتشفت أنها نسيت أن تجد لنفسها عبارة تحذيرية تهون عليها سقوطها من الدور الثالث، لم تتهشم المزهرية؛ لأنها سقطت على رأس طفل، فتهشم تمامًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأوراق

كان فايز يتطلع إلى أعلى، إلى لافتة زرقاء تتدلى بسرعة من أعلى المبنى وتضرب في الهواء بقوة قبل أن تقف عند نهاية الطابق الأول، معلنة بعد استقرار اهتزازها عن "**جمعية (معًا) للخدمات الإنسانية**". انتبه فايز إلى أحد موظفيه يقدم له مقصًا كي يقص الشريط الشفاف. كان يتوقع بعد قص الشريط أن يسمع ضجة كبيرة من الجماهير التي تحيط بالمكان، لكن صوت نقيق الضفدع كان أقرب إليه حتى من أصوات الموظفين المهنِّئة. شعر بحزن لعدم تواجد أيّ من الجماهير أو الإعلام على الرغم من المجهود الكبير الذي بُذِل في الحملة الإعلانية.

تأسست الجمعية مصادفة. كان فايز يغرق دومًا في أحلام اليقظة. ومكافأة على ذلك، أصبح كلما انخرط في حلم يجد الحلم مكتوبًا على ورقة. فرح فايز بتلك الموهبة، حتى إنَّها أصبحت مصدر دخله. كان يذهب إلى أحد المقاهي، يتعرف على الرواد، ثم يدخل معهم في رهان بأنه يستطيع أن يغرق المكان بالورق: ورق أزرق ينزل من السماء،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأحيانًا يخرج من باطن الأرض. تحول فايز إلى نجم تتسابق إدارات المقاهي على إغرائه بالنقود كي يقيم مراهناته حصريًا في مقاهيها.

وذات يوم كان يجلس تحت ظل شجرة، يسحب أنفاس الشيشة بهدوء، حين استغرق في حلم يقظة: أراد أن يملك جمعية مثل الجمعيات الخيرية، ولكن بدلاً من تقديم الطعام والملابس، تُقدِّم خدمة جليلة من نوع آخر، ستكون عبارة عن مكان واسع يجمع فيه أرواح الموتى. فإذا كنت عجوزًا تعاني من الوحدة بعد أن ماتت زوجتك، وأنتِ إذا كان ابنكِ مات غرقًا أو في أحد الحروب، إذا كنت فتى مراهقًا لديك قصة حب لم تكتمل بسبب أحد حوادث القطارات؛ فعليك بالذهاب إلى الجمعية، تبحث في الاستعلامات لتدلك على الغرفة التي بها فقيدك، ومن ثَمَّ توصل ما انقطع.

حين انتهى اليوم انتبه فايز إلى أنَّ الورقة الخاصة بحلم الجمعية لم تظهر. مكث نهار اليوم التالي يُكرِّر الحلم، يُزيد أو يُقلِّل تفاصيل، دون أن تظهر الورقة. في الليل، ذهب إلى المقهى متوجسًا فاستقبله عدد من المتشككين، رفعوا قيمة الرهانات. خسر فايز الرهان، ثم توالت الخسارات حتى ضاع كل ما كان كسبه في الفترات السابقة.

لم تعد هناك أوراق تتساقط، أو حلم يراوده بخلاف حلم الجمعية. في كشكه الصغير الكائن على شاطئ النيل، ابتلع كل الأدوية التي لديه، ثم سلم نفسه إلى أقرب مستشفى، مخبرًا إيَّاهم أنَّه حاول الانتحار.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد عدة أشهر كان فايز يسير وسط حديقة قُصّت أوراقها، لفتت نظره ورقة زرقاء على الأرض. انحنى يلتقطها فوجد ورقة أخرى سقطت على مقربة، قرأها فوجدها حلم الجمعية. وفي الورقة الأخرى تكرر نفس الحلم، قضى ليلته يتتبع الورق المتساقط ويُشبع قحط الأيام السابقة، فَرِحًا بأن الماسورة التي تتساقط منها الأوراق من مكان لا يعلمه قد أُصلحت أخيرًا. كان يركض على الورقة. يقرأها بسعادة، ثم يضعها داخل ملابسه، حتى أصبح له كرش ضخم من الأوراق.

لم ينتبه إلى أنه قطع أميالاً طويلة، تبدّل خلالها الليل بالنهار؛ إلّا عندما تغيَّرت الكلمات الموجودة على الورقة. فبدلاً من تكرار الحلم بشكل دوري، أصبحت الأوراق تشير إلى توجيهات أخرى: أن يذهب يمينًا، يدخل في حارة إثر حارة حتى يجد طريقًا مُعبَّدًا، في نهايته ضوء ساطع يضرب في عينيه. وبعد تجاوز الضوء، سيرى مبنى ضخمًا جدًّا، قائمًا وسط خراب شديد.

دخل فايز المبنى، واتبع بقية الإرشادات التي أوضحت له كل شيء، بداية من سجلات الأرواح المُقيمة في المبنى وتاريخ دخولها إليه، طريقة التعامل معها، ثم معلومات عامة عن مساحة الغرف، التي كان عرضها مترًا وطولها مترين. نوعية الزجاج المخصوص الذي يفصل بين الروح والزائر، إلى أن وصل إلى المكتب الذي زُيِّن بلافتة مُذهّبة نُقش عليها اسمه. فتح الباب، جلس على مقعده الجلدي الوثير. كان على سطح المكتب ملفان: ملف بقائمة أسماء الموظفين المُعيَّنين، وآخر كُتب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عليه "سري للغاية"، ثم إعلان عن موعد افتتاح الجمعية. كان فايز مستمتعًا لأول مرة بتحقُّق حلم من أحلامه.

مرت الأيام الأولى على الجمعية دون أي إقبالٍ جماهيري. وحين أجرى فايز استطلاع رأي، وجد السبب خوف الجمهور من هذا المكان الممتلئ بالأشباح، وأنه بالتأكيد كمين مُدبر. حينها لم يجد فايز حلاً إلّا استخدام إحدى أوراقه السرية، فخلال فحصه لسجلات المُقيمين في الجمعية وجد عددًا هائلاً من الفنانين: مُمثلين، ومُغنين، مسرحيّين. فقرر إقامة حفل غنائي يجذب الناس.

نصب الشادر وزيَّنه بالأضواء المبهجة. لكن عندما غنى عبد الحليم حافظ: "موعود معايا بالعذاب يا قلبي"؛ فرَّ معظم الجالسين، وبقي من لا يخافون شيئًا حيث شجعوا السائرين في الشارع كي يدخلوا. بعد حين امتلأ أغلب الشادر بالناس. دفع فايز بفتيات الإعلانات شديدات الفتنة لجذب الجماهير كي يأخذوا جولة تعريفية داخل الجمعية.

في اليوم التالي للحفل، توافدت الأرجل على الجمعية. هناك من جاء يبحث عن حيوانات منقرضة، أو قط ضائع منذ ساعة، أو قطعة ذهب مفقودة في المنزل، على اعتبار أنَّ الأرواح تعرف كل شيء. وجاء التليفزيون ليجري حوارًا مع عبد الحليم حافظ، لكنَّه كان يظهر فقط أمام العيون، أمَّا في الكاميرا؛ فلا يظهر منه سوى شعره الهائش، وأنفه المفلطح، وأسنانه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت الصورة المثالية التي رسمها فايز في خياله تتحقق: طُرُقات الجمعية ممتلئة بالورود، فتى يعزف على القيثارة أمام إحدى الغرف، الحب والسعادة تختلط مع مشاجرة بين إخوة حول الميراث.

وذات يوم، أخبرت السكرتيرة فايز أنّ هناك شخصًا يريد مقابلته لأمر مهم. دخلت عليه سيدة طلبت منه أن يعطيها روحًا واحدة، وقبل أن تُكمل كلامها أعلن فايز رفضه، مُتعلّلاً بأنّ أي روح هنا تتشارك المشاعر والذكريات مع كثير من الناس، ومستحيل أن يستأثر بها شخص واحد. على الفور أنهى اللقاء.

في صباح اليوم التالي تلقى فايز اتصالاً من السكرتيرة تخبره بأنهم وجدوا جثة السيدة التي قابلها بالأمس ملقاة أمام باب الجمعية، وبجانبها خطاب موجه إليه تستعطفه أن يضع روحها مع روح ابنها الصغير، ثم في أسفل الخطاب كتبتْ بيانات غرفة الصبي. غضب فايز، وأمر بإلقاء جثتها بعيدًا. ثم علّق لافتة كبيرة على واجهة الجمعية كتب عليها:

"تنبيه مُهم: (الجمعية لا تعطي ولا تأخذ أرواحًا)"

يوميًا، كانت تزداد أعداد الجثث الملقاة أمام باب الجمعية، أو المُعلّقة على أغصان الأشجار المحيطة، أو المربوطة في الأعمدة. هوجم فايز من الإعلام، نُعِت بالمجرم، والمتسبب في قتل كل تلك الأرواح البريئة.

انزوى في بيته لفترة بعد هذه الحملة الإعلامية المغرضة. حاول أن يخفف من سطوة القلق مستعينًا بالأنفاس الزرقاء. كان يفكر بجدية، في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حياته البسيطة التي تداعت، خصوصًا وأنه لم يعد يغرق في أحلام اليقظة.

في فجرِ أحد الأيام، قُبِض عليه. أُودِع غرفة بها مقعد خشبي غير مريح، ثم اصطحبه حارسان، وسارا به في ممر طويل، عند نهايته باب أخضر اللون. طرق الحارسان على الباب ثم دخلوا جميعًا. وقف فايز جوار الباب ينظر إلى الأرض، وتراءى له أنْ هناك أريكة كبيرة تلتصق بالحائط. وفي منتصف الحجرة طاولة مربعة صغيرة، تحتها سجاد فاخر. كان يبدو تجمُّعًا عائليًا. كان يسمع صراخ أطفال، وتعليمات من نساء لهم أن يكملوا طعامهم.

مرَّ وقت طويل حتى نادى عليه المحقق، فرفع نظره عن الأرض. رأى فايز المحقق وهو يحمل طفلاً رضيعًا على يده ويضع بزازة في فمه. لم يجد المحقق الورق الذي كان أمامه، بحث عنه بعينيه فرأى الملف في يد صبي لم يتجاوز الثالثة، جالس في ركن الغرفة يعبث بالأوراق. ضرب المحقق الطاولة بعصبية، ثم وجه لومًا عنيفًا للسيدة التي كانت تجلس بجانبه. كيف تترك الفتى يعبث بأوراق قضية مهمة؟! قالت السيدة: "إيه يعني! ما هي معروفة.. شكله نصاب". ثم دخلا في شجار، وتعالت أصواتهما، حتى ارتمى المحقق على الكنبة من التعب، وفتح أزرار قميصه كله. كان صوت تنفسه عاليًا وكرشه يعلو ويهبط بسرعة شديدة. ثم أشار للحارسين والتعب بادٍ على وجهه، فاصطحبا فايز إلى زنزانة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يُستدَعَ فايز مرة أخرى للتحقيق. وكلما سأل الحراس، وهم يضعون له الطعام، عن تهمته أو ميعاد التحقيق التالي، لم يتلق أي إجابة، ثم مرت أيام أخرى، واختفى الحراس تمامًا.

ذات ليلة تهاوت ورقة من سقف الزنزانة، وسقطت أمامه مباشرة. تذكر أنه للتو انخرط في حلم يقظة عن جحافل الأرواح التي ستأتي لإنقاذه. وفي اليوم التالي وجد الزنزانة غارقة في أوراق عليها كل الأسئلة التي سألها بالأمس، ولم يستطع الإجابة عليها. لماذا لم تنجح الجمعية؟ ولِمَ تمَّ القبض عليه؟ ولماذا نُسي في زنزانة صغيرة؟ لماذا لا ينجح أي شيء؟ ثم وجد أنَّ هناك تغيُّرًا كبيرًا، فبدلاً من أن يتساقط الورق عندما يغرق في حلم يقظة، أصبح يجد الورق كلما فكر أو تلفظ بشيء. وللتجربة، فكر في كلمة (موت) فوجد ورقة مرة أخرى عليها (موت). حاول فايز أن يجد حلاً، أن يجد فتحة في السقف، أو عُقبًا لباب، أو ثقبًا في الحائط. وحين فشل، دخل في معارك مستمرة مع الأوراق التي اكتسبت أطرافها حدة. يقطعها، يركلها، يبول عليها. ثم توقف فايز عن العراك بعدما هدَّه التعب. وارتمى على الأرض، تاركًا جسده تقطعه الأوراق ببطء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كأرجل الأخطبوط

قبل عشرين ساعة من موعد المباراة، وبينما كنتُ نائمًا، رنّ هاتفي المحمول، كان الرقم غريبًا، فتركتُ الهاتف ولم أرد، فعاود الاتصال مجددًا، في النهاية عندما أجبت مستسلمًا، تنامى إلى سمعي صوتٌ أنثويٌّ، يخبرني بأنّ الجثة التي مع عامر صديقك، ليست جثة أخيك، فجثة أخيك سرقت يوم دُفن، وأنّه لم يصدقنا أحدٌ عندما قلنا إنّ تلك المقابر أصبحت غير آمنة، سمعتُ تنهدها الطويل، ثم أغلقت الخط في وجهي. انتفضت من على السرير، اتصلت بعامر، ردَّ عليَّ مبتهجًا، سألته بحدة عن مكانه؛ فقال: "المقابر"، طلبتُ منه أن يبقى في مكانه حتى أصل إليه.

كنتُ أشعر بأنّني سبب في ضياع جثة أخي، كيف لم أشعر طيلة هذه الفترة، بأنّ القبر كان خاويًا؟ كيف لم أحسّ به وهو يتألم في مكان آخر؟ وصلتُ إلى المقابر وأنا منهارٌ في دموعي، فوجدتُ عامرًا يجلس على رصيف الجامع ووجهه منكب على هاتفه المحمول، عندما رآني، انتصب واقفًا وصاح مبتهجًا:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"ولا تقول لي تيشرتات ولا بفط، هو بذاته هيحضر معانا".

رويت له ما دار في المكالمة، احتاج عامر لوقت حتى يدرك الأمر، ثم أخرج مطواته وفتحها في الهواء، اقترب من الكفن الموضوع في سيارة نقل الموتى، شق الكفن بالطول، ثم تراجع إلى الخلف وهو يغطي أنفه بيده، أشار إليَّ أن أقترب، كان بداخله هياكل عظمية، وكانت الجمجمة لحيوان صغير لم نعرف كنهه.

اتصل عامر بخاله، سعيد الشحات، الذي كان بمثابة فتوة عصرنا الحالي، روى له عامر بداية من اتفاقه مع عم إبراهيم الحانوتي ليخرجوا الجثة، حتى ما وصلنا إليه الآن، بعد قليل سمعنا هاتف الحانوتي يرن، ثم رنَّ هاتف عامر. كانت خطواتنا التالية قد وضحت.

كنتُ أحمل مشاعر مختلطة بين الرغبة بالبكاء على أخي، ومشاعر الخوف التي تتملكني الآن من السير وسط المقابر في منتصف الليل، حكى الحانوتي ليكسر حدة الصمت، أنَّ والد الحاج طلعت، كان المقاول الذي أنشأ تلك المقابر، يقولون إنَّ الأرضية مصنوعة من أبواب حديدية، بعد دفن الجثة، وانتهاء الأقارب من البكاء عليه والدعاء له، تفتح البوابة، وتهبط الجثة على كومة كبيرة من القش. لكن عندما تولى الحاج طلعت، مسؤولية المقابر، قام بتزويدها بمصاعد، من خلالها يتم تبديل الجثة برميم الحيوانات تلك، ثم أضاف: إنَّ هذه الحكاية فقط التي تُذكَر، ودائمًا ما ينسى الناس قول: إنَّ الحاج طلعت يشتري الجثث

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منهم ولا يسرقها، وإنّ الاتفاق يتم في مكتب الصحة عند استخراج تصريح الدفن.

ولجنا مقبرة صغيرة، كانت بها عينٌ واحدة، وكان هناك شخصٌ ينتظرنا بالداخل. ودعنا الحانوتي ثم انصرف. فتح الشخص الجديد، الذي يبدو عليه النعاس العين بمفتاح، كانت العين واسعة وبها سُلم، نزل عامر ثم لحقته مسرعًا، أفضت العين إلى بهو ممتلئ بالناس، وكان هناك شخصٌ يرتدي بدلة، يقف خلف مكتب صغير، وفي يده جرسًا، كان الأمر أشبه بمزادٍ.

خرجنا من البهو عبر باب، وصلنا إلى غرفة في نهاية الممر، ثم أبلغنا السكرتيرة أنّنا قادمين من طرف "الحاج سعيد الشحات"، رفعت السكرتيرة سماعة التليفون، وأخبرته، ثم طلبت من الشخص الذي اصطحبنا أن يغادر، وبعد قليل كنّا نقف أمام الحاج طلعت الذي يجلس على مقعد ضخم خلف مكتب صغير، ابتسم وسأل مَن منّا عامر؟ رفع عامر يده مبتسمًا، فهز الحاج طلعت رأسه، أشار إليّ أن نجلس على الكنبة الجلدية، ثم جاءت السكرتيرة، وطلبت منّي معلومات، عن اسم أخي، تاريخ ميلاده ووفاته. أجرى الحاج طلعت مكالمة هاتفية حتى عادت السكرتيرة وهي تحمل ملفًا، ووضعته أمام الحاج، ثم انصرفت، تفحص الملف لدقائق، ثم قال لي:

"أنتما توأم؟"

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فأومأت بالإيجاب، ثم قال مبتسمًا: إنّ هناك فرقًا بين سُمك الحواجب، وحجم الأنف، ابتسمتُ ابتسامة للأسف لم تكن سخيفة، فكنتُ أود أن أنقض عليه، أضربه حتى يتهشم وجهه. تطلع لي بأسف حقيقي، ثم أغلق الملف، راح يكتب على ورقة صغيرة، ثم قال -وهو يقدم الورقة إليّ- إنّ هذا هو عنوان الرجل الذي اشترى الجمجمة، أمّا باقي العظم، فغالبًا قد تحول إلى منتجات لدى شركة الأثاث المحدودة. قال إنّه لا يستطيع مساعدتي أكثر من ذلك. لكنّه يستطيع تعويضي إكرامًا للحاج سعيد الشحات، قام من على المقعد، رفع الستارة التي كانت خلفه، فظهر بابٌ، ضغط على زر، ففتح الباب تلقائيًا، أشار لي أن آتي. شرح لي، أنّ قليلين جدًا من يدخلون تلك الغرفة، شخصيات منتقاة بعناية كبيرة، عليك أن تمسك شبكة، تضربها في الحوض وتأخذ ما بداخلها. "وأنت وحظك!". من الممكن جدًا أن يكون أحد أعضاء عمدة قرية أو حتى الممثل التي توفي منذ ثلاثة أيام. نزلت على سلم مكون من ثلاثة درجات، كان المكان يشع بإضاءة عالية، كان هناك رجلان يمسكان بشبك، ويدوران حول الحوض برهبة. بحثت عن شبكة في زوايا المكان؛ فلم أجد، سألت الرجلين، فلم يرد عليّ أحدٌ، ثم وجدتني، أنزع الشبكة من يد أحد الرجلين، ثم أضربها في الحوض وأخرج قلبًا، تطلعت إلى القلب، كان كبيرًا جدًا، وكنت أسمع نبضاته.

ركضت بالشبكة حتى وضعت القلب في جرة كبيرة، ثم أغلقته وضممته إلى صدري. اتبعت إشارات الخروج المعلقة في الأعلى،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وصلت إلى سرداب صغير، انحنيت، وزحفت على ركبتاي، حتى خرجت من فوهة بالقرب من الطريق السريع.

جلستُ على حَجَر كبير، التقطت أنفاسي، اتصلت بعامر، فلم يُجب، اتصلت ثانية، فوجدت هاتفه مغلقًا، وجدتْ كيسًا بلاستيكيًا يطير باتجاهي، فأمسكته، ووضعت الجرة فيه، ثم قررتْ الذهاب وحيدًا.

ترجلت من التاكسي أمام البيت الموجود في العنوان، صعدتْ إلى الدور الثاني، طرقت الباب الوحيد الموجود في الدور. خلال انتظاري كنتُ أفكر فيما سأقول، فتح الباب مواربًا وخرجت من خلفه عين صغيرة للغاية، اقتربت أكثر من الباب، تصنعت أنّي لا أراه، ثم طرقت ثانية على الباب، ففتحه الرجل على مصراعيه، قلت بأدب جم: "أنا من خدمات ما بعد البيع، من.. عند الحاج طلعت.." جرني من ملابسي بقوة إلى داخل الشقة، وضرب الباب بقدمه بعنف. سألني متهكمًا لماذا أرسلني الحاج طلعت الآن، فهو يتحدث معهم منذ سنة، منذ أن ابتاع الجمجمة، ولم يرد عليه أحدٌ، أخبرته أنَّ هناك مشاكل في خطوط هواتفنا، وإنّنا لم نتلقَّ اتصالات منذ فترة طويلة، ولتحسين خدماتنا، قاموا بإرسالي لسيادتكم، اتهمني بالكذب، قائلاً إنّه ذهب هناك مراتٍ عديدة ولم يهتم أحدٌ بمقابلته.

شعرتُ بالإحراج، فأخبرته أنّني جديد في العمل، وهذا ما أبلغوني به كردٍّ على أسباب تأخرنا في الرد على العملاء. نظر لي باستهتار، ثم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اختفى داخل الشقة، تطلعت إلى الصالة، كانت عادية جدًا، برواز مائل، أثاث قديم، سجادة متهالكة، طاولة عليها بقايا طعام. عاد لي الرجل وهو يرتدي بذلة كاملة، ويحمل صندوقا مربعًا في يده، ثم أشار ناحية الباب، وأخبرني بأنه سيأتي معي إلى الحاج طلعت.

عندما خرجنا إلى الشارع، ضربتنا نسمة هواء باردة، أخبرني بصوت ودود، أنه كان يريد جمجمة كبيرة الحجم، وليست صغيرة مثل هذه، ثم هز الصندوق الذي يمسكه بيده القوية، فكرت في الاتصال بعامر ليساعدني، لكن هاتفي المحمول رنَّ، كان نفس الرقم الغريب الذي اتصل بي، كان نفس الصوت الأنثوي، اعتذرتْ قائلةً إنه النوم قد تملك منها، فهي كانت ستساعدني بشكل أفضل. أخبرتني أنَّ المعلومات التي قدمها لي الحاج طلعت غير صحيحة، هي لا تظلمه أو تقول إنه تعمد إخباري بمعلومات خاطئة، لكنَّه لا يعرف فعلاً، أرجوك لا تغضب منه، المهم، في الليلة التي تمت فيها سرقة جثة أخيك، تم مداهمة عملية التوزيع، وتم التحفظ عليها، وقد علمنا مؤخرًا أنها مدفونة في المقابر الرسمية التابعة لإدارة المحافظة، ثم أغلقتْ الخط في وجهي، تذكرتُ فورًا أن المقابر قريبة من هنا، كان عليَّ فقط التخلص منه، فقلت له إنَّ هذه المكالمة كانت من الحاج طلعت، يخبرني بضرورة عدم ذهابي إلى هناك، فالشرطة قد تداهم المكان في أي وقت. زمجرت ملامحه، أطبق بيديه على عنقي، انتزعت نفسي بقوة، هممت بالركض، ضربني في قدمي، فسقطت، ثم انهال عليَ ضربًا حتى فقدتُ الوعي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استيقظت على ألم شديد في وجهي، قمتُ بصعوبة، مسحتُ الدم الساقط من أنفي. نظرت حولي أبحث عن الجرة، وجدتها مكسورة على الأرض، والقلب ينبض في منتصف الطريق.

اتصلت بعامر أكثر من مرة، مازال هاتفه مغلقًا، خرجتُ إلى الشارع العمومي، كانت الدنيا مزدحمة جدًا بسبب ذهاب الناس إلى المباراة، فمائة ألف شخصٍ على الأقل سيحضرونها. قررتُ أن أمشي، فمن المستحيل أن أجد تاكسي يقلني إلى هناك.

كانت المقابر تقع خلف الاستاد الذي ستقام فيه المباراة، كنتُ أسمع تشجيع الجماهير الهادرة، كانت أضواء الكشافات قوية، تضيء المكان من حولي تمامًا، كنتُ أشعر بأنني مكشوف، خصوصًا لأنني سأقفز من فوق السور، هبطتُ إلى الداخل، ووقعت بين كومة من الأشجار التي تحيط السور. كانت العيون أمامي كثيرة، بالطبع لم أعرف في أي عين دفن أخي، اتصلت بالرقم الغريب، مرة ثم أخرى، حتى ردت قائلة بأني شاطر؛ فهي راحت في النوم ثانية، سألتني إذا كنتُ أصبحت داخل المقابر، ثم شرحتْ لي أنَّ المقابر مبنية على شكل دائرة، وأنَّ أخي في أحد العيون التي تشكل الخط الذي يقطع الدائرة من المنتصف. طلبتُ منها أن تكون أكثر تحديدًا، لكنَّها أغلقت الخط، اتصلت ثانيةً فكان هاتفها قد أغلق. جاهدتُ حتى وصلتُ إلى المنتصف. كانت العيون ملتصقة ببعضها كأرجل الأخطبوط، وكانت هناك مطرقة حديدية ملقاة على الأرض. عندما أمسكتُ المطرقة، زادت حدة التشجيع، ضربت بالمطرقة في أول عين وجدتها، لم تفتح، حاولت في العين المجاورة لها،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم تفتح أيضًا. كانت أصوات الجماهير عالية جدًّا، أصوات استهجان شديد. انتقلت إلى الناحية الثانية، ضربت أول عين، فسقطت بعد أول ضربتين، فوجدتُ بداخلها كهلاً يتثاءب، ضربت في العين التي تليها، وجدتُ فتاة تصفف شعرها، فاعتذرت خجلاً. عدتُ إلى الناحية الأولى، وضربت بقوة على آخر عين، لم يظهر لي أحد، نظرتُ بالداخل، لمحتُ طيف أخي، فمددتُ يدي وجذبته، عندما خرج، أطلق الحكم صفارة مدوية، فانهمرت الجماهير تنزل إلى المقابر، ويحملونني فرحين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان عامل المقهى، قد اعتاد على الأمر، بمجرد دخولهم، يقف في أحد الأركان، منتظرًا انتهاء دوريتهم التفتيشية. أحيانًا كانت الدورية تلقى بعض المقاومة من أحد الجالسين، لكن في الغالب كانت مقاومة صورية، وجود أحد جنود الاحتلال الذي انجلى منذ خمسين عامًا، بالطبع يحتاج إلى أحد الوطنيين، أحيانًا، كانت المقاومة الصورية، تتحول إلى جد، يتلقى المقاوم ضربة من كعب البندقية، تُطَيِّر له صف أسنانه، أو يقبض عليه ويختفي تمامًا.

في يوم، جاءت الدورية، تحمل أدوات حفرٍ، كان الضابط يريد الوصول إلى المكان الذي يختبئ فيه الفدائيون، ضرب الضابط الأرض بالمعول، ثم بالمجرفة أزاح التراب والطين. وقف باقي جنود الدورية، يتهامسون، يشيرون ناحية الضابط بأنّه أصبح مجنونًا، حين انتهى، بعد عدة ساعات، ولم يجد شيئًا، نام وسط الحفرة، وطلب من جنوده أن يدفنوه، حتى يذهب بعيدًا ويكمل البحث عن الفدائيين تحت الأرض.

البناء الثاني:

لا أحد يعرف كيف أعيد بناء المقهى، نبت ثانيةً كالعشب الشيطاني. عاد بنفس صورته السابقة، كانت الإضافة المميزة، هي العطر النسائي الذي فاح في المكان. اقترب المقهى أكثر من النيل، وبَعُدَ كثيرًا عن الطريق، أحيط بعدد من الشجراتِ الباسقات. تحول المقهى إلى نقطة التقاء الأحبة الهاربين، ترى فتاة تقف بجانب حقيبتها وتتطلع إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القادمين بترقب واضح في انتظار قدوم حبيبها. كانت تمرُّ ليالٍ، يجتمع العشاق، يتعانقون بقوة، ثم يحملون حقائبهم ويكملون الرحلة في هدوء. وكانت تمر ليالٍ طويلة، يبقى البعض في حالة انتظار مرير، فالحبيب لم يأتِ بعدُ.

كان العاملون في المقهى يحنون عليهم، لا يدققون في عد المشاريب وأخذ الحساب، كانت قلوبهم تتمزق من أجل قصة حب لم تكتمل، أحسوا بالتزام تجاه تلك العلاقات، خرج البعض منهم يبحث عن الحبيب المنتظر، وأمَّا الآخرون، فخلقوا ألعابًا، تساعد المنتظرين، في التعرف على بعضهم بعضًا، أرسلوا خطاباتٍ مزيفة، ورودًا، برقياتِ تهديد، سريعًا نشأت علاقات حبٍّ بين المنتظرين، واكتملت رحلات الهروب. كان العدد يقل واحدة، واحدة، وعندما لم يعد هناك أحد، نزع العاملون أرديتهم وانصرفوا.

المقهى المهجور:

لا أدري لماذا صرتُ وحيدًا؟ لم يأتِ أحدٌ لزيارتي، بعدما سرقوا كل ما بداخلي. أحيانًا كانت تقف أمامي سيارة، وينزل منها شاب ويتجه نحوي مهرولاً، ثم ينصرف بسرعة، في النهاية أكتشف أنه يفرغ في فضلاته. كنتُ أشعر بالحنق على نفسي، وعلى تلك الحياة التي أعيشها. كنتُ أريد أن يكون لي دورٌ ما.. أي دور! ظللتُ أفكر حتى نضج في ذهني، لماذا لا يكون لي فمٌ؟ اجتهدت حتى أخرجت فمًا، ثم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تثاءبت بصوت عالٍ، ألححت على السكان أن ينظفوني، ثم دعوت المساكين أن يناموا بداخلي، معتذرًا أني بلا أجنحة. كنتُ أوقظ الصيادين حين تغمز صنانيرهم، أعلق على مباريات كرة القدم التي على الضفة الأخرى. أصبحتُ ذو شعبية كبيرة، يعاد طلائي كل حين، يذكون رائحتي بالبخور، يفرشون أرضيتي بالسجاجيد، كنتُ أشعر بأنهم يحبونني بصدق. لكن منذ الأمس وأنا أشعر بقلق وخوف كبيرين، فبعد منتصف الليل، رأيتُ عددًا من سيارات الشرطة تسير في طريقها إلينا، فبالطبع أبلغتُ سامية أن تُسرِّح بناتها، وتجار المخدرات أن يُخبئوا بضاعتهم. بعد أن انصرفت سيارات الشرطة خائبة الرجاء؛ شعرتُ بيد غريبة، تربت على ظهري بغِلٍّ، وتقول لي:

"يومك قرَّب يا حلو".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢٩٩٠

تلقيتُ إشعارًا بأنَّ أمي ماتت وهي في السادسة من عمرها إثر حادث لم يكن في الحسبان، ذلك يعني أنني لن أجد رحمًا أولد فيه. تلقيتُ إشعارًا آخر بأنَّ عليَّ أن أُقدِّم طلب التماس، ثم عرفتُ أنَّ الطلب قد رُفض، وأنَّي وُضعت على رأس قائمة الانتظار، انتظار أن يموت شخص مثلي لم يولد بعد. تعويضًا للخطأ الذي حدث، فعمري زاد ليصبح من "٣٣" إلى "٥٣" عامًا. ثم توالت إشعارات الانتظار، وتوالت السنون التي اكتسبتها. عندما وصل عمري لألف عام، كُرِّمتُ، علقوا على صدري وسامًا أحمرَ، وأصبح على كل من يمر بجانبي أن ينحني احترامًا.

في اليوم التالي لتكريمي، عرفتُ أنَّ اسمي رُفع من على قوائم الانتظار. ثم أعلنوا فشلهم في إيجاد رحم بديل لي، قدموا حلاً واحدًا، أن يتم توزيع عمري على أشخاص آخرين، وأن أعيش أنا تلك السنين المضافة، أعيشها بروحي لكن في صور أخرى. أضافوا أنَّ هذا استثناء كبير، لم ولن يحدث ثانيةً. ما لم يقولوه لي: أن تلك العملية ستتم في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقتٍ واحدٍ، فأصبحتُ موزعًا بين أكثر من ألف شخص، يعيشون في
توقيت واحد. كنتُ مُعذبًا لا أعرف أين أنا. كنتُ أتمنى أن أتجمع لمرة
واحدة حتى أصرخ قائلاً: "توقفوا".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ضيوف العمّة

بالنسبة لعمتي: لم تكن هذه الليلة عادية على الإطلاق، أمّا بالنسبة لي؛ فكانت مثلها مثل ليالي الانتقام العديدة التي خضناها.

لم تستطع عمتي أن تنام قبلها بأيام، كانت دائمًا يقِظة، تجلس على السرير بوجهها الممصوص وأنفها المنحوت، وتنظر من النافذة، كأنها تتوقع أو تخاف قدوم أحد. حذرتني قائلة، مرة الانتقام هذه تختلف عن سابقيها، فهذه المرة تحكّم في تخطيطها أشياء مثل حركة النجوم، ودوران الكواكب، كما أنّ لها ميعادًا دقيقًا جدًّا، إذا تأخرنا ثوانٍ؛ سيفضي إلى موتنا.

تحركنا بعدما أصدرت ساعتنا صوتًا منغمًا، وخرج العصفور من عشه معلنًا انتصاف الليل. لم تخبرني عمتي إلى أين سنذهب، انطلقنا بالسيارة إلى العنوان الأول الذي حددته لي، كان يقع على بعد "عشرين كيلومترًا". خلال سيرنا على الطريق السريع، لاحت بناية ضخمة، قائمة في وسط الأراضي الزراعية، أخرجت عمتي رأسها من نافذة السيارة وتطلعت إليها في هيام، سألتها:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"مزرعة فراخ يا عمتي؟"
فابتسمت وقالت:

"لا وانتَ الصادق: مزرعة بني آدمين".

بعد وصولنا، أخذتني في جولة داخل المكان، كان مقسمًا إلى أربعة طوابق، الطابق الأول: مخصص لتجميع المنيّ، والأجنّة في الطابق الثاني، في الطابق الثالث: الأطفال في عمر سنة، والرابع: للأطفال في عمر عامين. قالت عمتي إنّ هذا هو العمر المطلوب، وعندما سألتها لماذا؟ أجابت بأنها لا تستطيع أن تسرق خمسين طفلاً في عمر عامين. كنت أريد أن أكرر السؤال، لماذا في عمر السنتين تحديدًا؟ وما سبب إنشاء المزرعة أصلاً؟ لكنّي تراجعت. وزعنا الخمسين طفلاً على قفصين، ثم وضعناهم في صندوق عربة نقل كانت تقف أمام المزرعة.

في طريقنا إلى العنوان الثاني، كانت عمتي في قمة سعادتها، تشعر وأنّ العالم دَنا منها أخيرًا، لكن عندما رأت لا مبالاتي، أخبرتني بصوت عالٍ أننا ذاهبين لقتل من تسبب في اختفاء أبي وأمي.

منذ أن وعيت على الدنيا، لم أجد لي أبًا أو أمًا أو عائلة، فقط عمتي وألبوم صور مهترئ. لا يأتي لزيارتنا أحدٌ، ولم نذهب لزيارة أحدٍ. في عُمْر مبكر، أخبرتني عمتي بحادثة اختفاء أمي وأبي. كانوا في رحلة صيفية، جمعت أبي وأمي، وعمتي وخطيبها، وفي يوم، كانوا يجلسون جميعًا حول طاولة على شاطئ البحر، يلعبون "الكوتشينة". بعد أول دورين، غفت عمتي في نوم عميق، وعندما استيقظت ثانية، كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هناك فتى شديد الوسامة يجلس بجانب خطيبها، سألها الخطيب، إذا ما أرادت أن تشارك في دور "الشايب" شديد الجدية، ذي عواقب قوية، لكنها أومأت بالرفض، وأبلغتهم بأنها ذاهبة إلى النوم.

في صباح اليوم التالي، كانت الشقة خاوية تمامًا. ذهبت إلى الطاولة التي كانوا يجلسون عليها بالأمس، فلم تجدهم. سألت عنهم في محل البقالة، المطعم، السمسار، ثم شعرت أنها مزحة ثقيلة جدًا، فحزمت حقائبها وغادرت المصيف. عندما عادت إلى بيتها، وجدت ورقة تحت عقب الباب، مكتوب فيها: إنَّ المختفين الثلاثة قد عادوا إلى الماضي، أبي وأمي عادا إلى الثلاثينات، خطيب عمتي عاد إلى القرون الوسطى.

امتلأت الصحف بأخبار الخطف، مصحوبة بالأوراق التي يجدها أهالي المختفين، مموهة بالحقب الزمنية، خصصت الشرطة، خطًا تليفونيًا ساخنًا، وأعلنت عن غرفة عمليات لمتابعة آخر المستجدات. تحركات الشرطة لم تُسفر عن شيء. حتى إنَّ رجال الشرطة، وزُعوا في سرية تامة على أهالي المختفين، عناوين وأرقامًا هاتفية لعرافين وسحرة.

بدلاً من الانهيار والذهاب إلى المصحات، اختارت عمتي أن تشبع طاقة غضبها في كل من أساء إليها، وكل من أساء إلى فرد من عائلتها، وكل من أساء إلى حجر متروك على الأرض، ثم استمرت في الذهاب إلى السحرة، مستعينة بالعفاريت للوصول للمخطوفين، فشلت العفاريت في الوصول إليهم، لكنها لم تفشل في الوصول إلى الخاطف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

توقفت السيارة أمام مبنى حديث البناء، نظرت عمتي في ساعة يدها، وقالت:

"يالا بسرعة".

حملتُ عمتي القفصين بسهولة أثارت استغرابي، وكان الأطفال في حالة استرخاء تام لم أعرف سببه. وضعت عمتي الأقفاص في المصعد، ولما هممت بالركوب معها منعتني، قالت إنني غير مصرَّح لي بالصعود.

استندتُ على السيارة، أخرجت سيجارة وأشعلتها بهدوء، غمرني هدوء المكان من حولي، وقلت لنفسي إنَّ الدنيا ستكون أفضل من دون عمتي.. ستكون أفضل تمامًا. ستكون بداية جدية لأعرف من أنا؟! وفجأة وجدتُ نفسي أعود إلى المصعد مرة أخرى، لكن هذه المرة كان معطلاً، اتجهتُ إلى السلم، صعدتُ حتى الدور الثالث؛ فوجدتُ بوابة حديدية تمنعني من الصعود، قفزت من فوقها، صعدت عشر درجات، ثم انهالت ضربات خفية على ظهري فجأة.

استيقظتُ وسط مكتب ممتلئ بالناس، قلت لنفسي يبدو أنني في قسم شرطة، فهناك عدد من الرجال يحملون أسلحة، كانوا جميعًا يتطلعون إلى التلفاز بتعجب. طلبت كوب ماء، فالتفتوا إليَّ مذعورين، وحين عادت ملامح الجد على وجوههم طلبوا لي ماءً، وبعد أن شربتُ قالوا تعال، أفسحوا الطريق ناحية التلفزيون، ثم أعادوا الشريط. رأيتُ بابًا يُفتح، ومنه تركض عمتي ثم تختفي، وخلفها خرج رجل يزحف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على الأرض، وعندما رأيت الأطفال وهم يأكلون الرجل الزاحف، تقيأت وأغمي عليّ مجددًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إغواء الكف الصغير

خلال عودته إلى البيت، لمح ألفي داخل الكشك الزجاجي لبائع الجرائد، غلافًا أحمرَ، نُقش عليه بلون ذهبي يدًا تشير إلى أن: "تعال".

تطلع إلى غلاف الكتاب مسحورًا، أدخل يده في جيب بنطاله وتحسس النقود التي بداخله، كان مُتخوِّفًا ألّا تكفي ثمنًا للكتاب، سأل البائع عن ثمنه بخجل، ثم بثقة طلب نسخته. وجد اسمه مكتوبًا في الصفحة الأولى، ثم تبعه أمر موجه إليه، بأن يساعد الأميرة. لم يهتم ألفي بذلك الأمر، ثم راح يتجول في الحدائق العامة، مستمتعًا بالمناظر الخلابة، وبالنساء الجميلات، حتى جاءه رجال الرواية، واتهموه بأنه يتعمد تخريب الرواية، فالساحرة قد جاءت، وسحرت الأميرة، فسلبت منها كل شيء، وأنّه من المفترض عليه الآن أن يكون بصحبتها، ثم حذروه، عليكَ فقط مساعدتها، لكن دعها تعمل وتعرق، وإذا وقع لها حدث طارئ فعليه التدخل فورًا.

لحق ألفي بالعربة التي حملت الأميرة، ثم أصبح ذراعها الأيمن، يبحث لها عن عمل، يجلب لها الطعام المجاني، يدثرها في الليالي الباردة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في يوم استيقظ ألفي، على ضرب مبرح من رجال الرواية، قالوا له:

"كيف تدع صاحب البيت يغتصبها؟! كان عليك أن تنقذها في اللحظة الأخيرة".

شعر ألفي بالحزن لما حدث للأميرة، ثم أخذ على عاتقه أن يصلح ما أفسده، خرج من الرواية، ثم عاد ثانية ليقرأها من الصفحات الأخيرة، عرف النهاية، والمكافأة التي ستمنح له على مجهوداته، ضاعف مكافأته عدة مرات. بحث عن الأمير، حتى وجده يصطاد الطيور، ثم حكى ألفي له حكاية الأميرة البائسة، ثم قال له والدموع تترقرق من عيناه: "انقذ الأميرة.. انقذها يا أمير".

أوصل ألفي الأمير إلى الغرفة التي ترقد فيها الأميرة. ثم أغلق النور، وأختبأ تحت الطاولة، جاء رجال الرواية يبحثون عنه. بهدوء، خرج من تحت الطاولة، ثم أفرغ طلقات مسدسه فيهم جميعًا.

فكَّ الأمير سحر الأميرة، ثم تزوجا في حفل مهيب. عندما حان وقت مكافأة ألفي، اكتشفوا أن المكافأة ضخمة للغاية، وأنها تتجاوز كل ما يملكه الأمير والأميرة مُجتَمعيْن. شعروا بأنَّ هناك خطأ كبيرًا، أصر ألفي على المبلغ، وأصر الأمير على عدم الدفع، دارت بينهما مبارزة قوية، أصيب الأمير فيها بجروح بالغة، ومات فيها ألفي.

أغلق ألفي الرواية، وكانت تتملكه رغبة عارمة في الثأر. حاول قراءتها من أول وجديد، لكن صفحات الكتاب أصبحت خاوية من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكلمات. خرج من بيته، ذاهبًا إلى بائع الجرائد الذي ابتاع منه الرواية. فوجد هناك جمعًا ضخمًا من الناس، يفشلون في كسر الكشك الزجاجي الذي بداخله الروايات، كانوا جميعا يريدون الانتقام من الأمير، أشعلوا النار في الكشك، فخرج عليهم الناس من النوافذ يسبونهم، ثم يلقون الماء من النوافذ لإطفاء الحريق، فردوا بإلقاء أكياس القمامة على الواقفين في النوافذ، كان الوضع يتجه إلى الأسوأ، خصوصًا وأنْ صوت سيارات الشرطة قد اقترب. فقررتُ أن أضع نقطة في آخر السطر الفائت، وأنهي الأمر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المحتويات

الصفحة

الفيل وليس الكانجرو يا وُودي ٩

كنتُ، سأكون في فرح ١٥

يوم دخلت في حدوة حصان ٢١

يوميات حروب الفئران ٢٩

لصوص النوم ٣٧

قُربانا ٤٣

حكاية الأخ العائد والأم التي أصبحت قطة ٥٣

حكاية حريق الأرشيف والأجندة التي تعرف ٥٧

مصائد المرأة السمراء ٥٩

حكاية المزهرية القاتلة ٦٥

الأوراق ٦٧

كأرجل الأخطبوط ٧٥

ثلاث حكايات لمقهى وحيد ٨٣

٢٩٩٠ ..... ٨٧

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ضيوف العمّة ٨٩
إغواء الكف الصغير ٩٥

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يلعب أمجد الصبان في مجموعته القصصية "لصوص النوم" مع الحكاية بالأساس، الحكاية في عناصرها الأولى. ولا يعني كثيرًا بتقديم حكاية ممسوكة، لها "رأس وذيل" كما يقولون، بل يعمد إلى تفكيكها والاشتغال على عناصرها. الحكاية عند أمجد الصبان حكاية مُتشظّية، لعوب، تحيل إلى علاقات وأبنية رمزية في الواقع، دون التورط في محاكاته.

تنشغل الشخصيات في "لصوص النوم" دومًا بموقعها من العالم، والذي يُشكّل نوعًا من التهديد بمحو هويتها ومسخها، فتحاول النجاة إما بمقاومة هذا التهديد، أو بمحاولة التأقلم معه عبر إعادة تخييل ذواتها.

مجموعة قصصية مكتوبة بخيالٍ جامح، طازج ومنطلق، ونزوع تجريبي له مذاقه الخاص.

*

أمجد الصبان: كاتب مصري، من مواليد دبي عام ١٩٩٠. حصل على بكالوريوس تجارة من جامعة المنصورة. نشر عددا من القصص القصيرة في عدة مجلات ومواقع إليكترونية، مثل: "أخبار الأدب"، "الكتابة الجديدة"، موقع "قل"، موقع "ختم السلطان"، و"البديل". "لصوص النوم" هي مجموعته القصصية الأولى، وفاز عنها بمنحة مؤسسة "آفاق" للكتابة الإبداعية في عام ٢٠١٨.

AFAC ARAB FUND FOR ARTS AND CULTURE
الصندوق العربي للثقافة والفنون

الكتب خان للنشر والتوزيع

ISBN 978-977-803-094-5
9 789778 030945 >

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner